منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (1766)السنة السابعة -السبت (10) نيسان 2010

2

انطون تشيخوف الكاتب الإنساني العظيم

10

دونكيشوت العزلة الإنسانية اللامتناهية

تشيخوف

صورة تجمع تشيخوف مع تولستوي

في الذكرى ١٥٠ لميلاده

انطون تشيخوف الكاتب الإنساني العظيم

بقلم : جيورجي بيرديكوف
ترجمة : بلقيس الربيعي

لم يكن تشيخوف يتمتع بشهرة عالمية خلال فترة حياته ، على نقيض معاصريه من كتاب روسيا العظماء أمثال تولستوي ودوستوفسكي اللذين كانت شهرتهما تطبق الآفاق وهما احياء، لكن العالم اخذ يتعرف على تشيخوف بعد وفاته ،وازدادت شهرته بعد ذلك الحين بسرعة مذهلة ليصبح وفي كل انحاء العالم على قدم المساواة مع كاتب "انا كارنينا" و"الأخوة كرامازوف" .

إن هذا الإنتشار السريع والواسع لسمعة تشيخوف جاء تأكيدا لملاحظة تولستوي عنه حين قال " إنه فنان الحياة ..وإن أدب تشيخوف سهل المنال ومفهوم ، ليس لكل روسي فحسب بل ولكل إنسان اينما يكون " وأكد ذلك الممثل البريطاني المعروف بول سكوفيلد قائلا " بالرغم من أن تشيخوف واحدا من اكثر الكتاب وطنية ،وان ابطاله روس حتى النخاع، لكن مشكلاتهم ، افراحهم واحزانهم ،حياتهم العائلية ومحنهم تشابه الى حد كبير ما تعانيه الشعوب الأخرى " كما أشار العديد من النقاد بأن تشيخوف قدم للعالم صورة حقيقية عن روسيا والشعب الروسي .ففي عام ١٩٥٨ كتب كلودروي قائلا : "إن تشيخوف ، مثل تولستوي ،بفضله عرف الناس ، في كل مكان ، روسيا وأحبوا شعبها " .

في الحقيقة ، كان تشيخوف كاتبا روسيا بكل معنى الكلمة ،لكنه لم يحب الشعب الروسي والطبيعة الروسية الجميلة،ولم ينشغل بمشكلات الحياة الروسية فحسب ،بل كان قادرا على التعبير عن اكثر العناصر أهمية في تفكير التجمعات الروسية التقدمية في زمانه ،والتي كانت تهتم بعمق بالمسائل الأساسية للوجود الإجتماعي ، المسائل التي تهم جميع الناس بصرف النظر عن جنسهم وقوميتهم .

وعند الحديث عن الأهمية العالمية لإدب تشيخوف ، يوجه النقاد الإنتباه الى الشكل الفني الجديد الذي اكتشفه تشيخوف وقد لاحظ تولستوي ذلك في اعمال تشيخوف وعلى اساسه اعتبره فنان الحياة . إن الخاصية الرئيسية في ادب تشيخوف هي الحقيقة العميقة حول الحياة التي لم تكن معروفة كفاية قبل تشيخوف كما أشار الى ذلك غوركي بأن تشيخوف "ادرك مفهومه عن الحياة ، وبذلك أصبح قادرا على الإرتقاء فوقها " إن الشخصية المحورية في معظم قصص تشيخوف الهزلية هي (الرجل الضئيل)، وهي شخصية معروفة في الأدب الروسي ، وتعني ضحية الظلم والحكم الإستبدادي .وتظهر قصصه بأن مقترفي الظلم والأعمال الشريرة هم غالبا من الموظفين ، وإن الحياة بما فيها من مواقف ومشاعر ،أصبحت مشروطة بالمال وبالتمايز الطبقي الحاد .

وإعتقد نقاد الأدب في ذلك الوقت بأن هذه القصص قد سجلت خرقا للتقاليد الديمقراطية في الأدب الروسي ، لكنها دفعت به خطوة كبيرة للأمام في تصويرها الفني لجوهر النظام المتسلط وعدائه للإنسان ، واظهرت بروح نقدية عظيمة الترابط الوثيق بين الخنوع والطغيان .وكانت في الحقيقة دفاعا جديدا عن الإنسان ، ليس فقط عن حقوقه بل وعن الطبيعة البشرية نفسها .كما أشار بعض النقاد بأن النبرة الحقيقية لقصص تشيخوف ، هي كشف للتقاليد الديمقراطية للأدب الروسي . ففي وصفه للمشاهد الدرامية ، لاتوجد هناك سخرية حادة ولا اي شكل من اشكال التعليقات أو المواعظ من جانب المؤلف ...فقد كان تشيخوف مجرد ساخر . فالسخرية التي تتميز بها كتاباته تعود الى الروح الديمقراطية والتفاؤل العفويين اللذين يميزانه وأديا به الى أن ينظر الى الأخلاق والسلوك السائدة في عصره ، بأنها شيء بغيض وغير طبيعي ،فإندفع للسخرية منهما .

لقد أظهرت أعمال تشيخوف المبكرة نبرة اخرى ، كانت تنطوي على قصص حزينة تدور احداثها حول السأم والفراغ في الحياة البشرية وتؤكد الجوهر الإنساني في أعماله بشكل عام ..بينما في قصص اخرى يظهر تشيخوف الطبيعة المضحكة للمعاناة الخيالية ، وفي البعض الآخر يظهر تعاطفه وحبه لإبطاله اولئك الذين لم يفقدوا إنسانيتهم .

إن تشيخوف لم يفلح في إنتاج مثل هذا النوع من الأدب الجاد إلا فيما بعد ، وذلك في أواسط عام ١٨٨٠ ، حين نشر عددا من قصصه الغنائية والتي برّزت الأصالة في شكلها ومضمونها ، فقدمت شيئا جديدا في الأدب الروسي والعالمي . ومهما يكن فإن تلك القصص ، كقصته الأولى تدور احداثها حول اشخاص عاديين في الظاهر ، إلا انهم في الواقع يختلفون بشكل واضح عن ابطاله في قصصه الهزلية . ففي تلك القصص نعيش في عالم ساخر ، غريب الأطوار ، مأهول بمخلوقات عديمة الحياة ،وفي قصصه الأخيرة يجعلنا تشيخوف نشعر بمشاعر خفية وعاطفة عميقة حتى إتجاه الشخصيات الجاهلة والغير ناضجة.

فبدلا من التقسيم العمومي للعلاقات الإجتماعية السائدة ، يقوم تشيخوف بتحليل عميق لمختلف جوانب الواقع الإجتماعي ... فيكشف عن الميكانيكية التاريخية في العمل وإستعباد الناس في الريف والمدينة في روسيا القيصرية .. فيظهر ابطال جدد ينهمكون في مناقشات حادة حول قضايا فلسفية واجتماعية وسياسية ..لكن في قصصه الأخيرة ظلت دراما الوجود الإنساني تشكل الفكرة الرئيسية . وفي كل قصص تشيخوف ينتاب القارئ إحساسا ليس فقط بالحياة كما هي ، بل بالحياة كما يجب أن تكون ..وبمرور الزمن تتجسد في اعمال تشيخوف فكرة المستقبل السعيد وتصبح الحياة الجديدة أكثر وضوحا ، ليس كحلم بعيد ، بل كواقع تاريخي .

ويرتبط تطور أعمال تشيخوف بشكل لاينفصل بتحليله الخارق لموضوعته الرئيسية . الصراع بين الإنسان و النظام البرجوازي الأقطاعي .ويفتح الوضع الديمقراطي العام امام تشيخوف بعدا آخر يساعده على كشف الأهمية العامة للصراع بين الإنسان والنظام البرجوازي ...فيبين للقارئ بأن هذا النظام ضارا ليس فقط للأغلبية المستغلة (بالفتح) بل ولأفراد الطبقات الحاكمة وللمفكرين الذين يخضعون للأفكار البرجوازية حول السعادة أو الذين يذعنون لطريقة الحياة المعتادة.

وفي كل أعمال تشيخوف الناضجة ، يظهر الصراع الذي يخوضه المفكر كمواقف اخلاقية مع العادات السائدة ، وهذا الصراع يقود إما الى ولادة الوعي الذاتي لدى المفكر وبالتالي رفضه للنظام ، أو الى فقدانه لمشاعره الإنسانية وعواطفه وقبوله بالأمور التافهة التي تحيط به . ومن خلال تصويره لهذا الصراع بين المفكر والنظام الإجتماعي غير العادل ،يبين تشيخوف بأن مقاومة ذلك النظام هو الطريق الوحيد للفرد في الحفاظ على إنسانيته .

إن التناقضات الحادة في النظام البرجوازي الأقطاعي في روسيا ، كما يؤكدها تشيخوف .حرمت الناس الجيدين والمفكرين الشرفاء من إمكانية العيش بسعادة .وعلى الأرجح لم يكن هناك كاتب قبل تشيخوف استطاع أن يكشف هذا التنافض في قصصه أو مسرحياته ، لكن تشيخوف قطع شوطا بعيدا حين أشار الى كيفية تشكيل المفهوم الجديد للسعادة (السعادة إدراك المرء لكرامته ،وبحثه عن حياة جديدة وعمله من اجل إنتصارهذه الحياة. وهكذا فمفهوم تشيخوف حول السعادة البشرية يتضمن فحوى جديدة .

إن الذي أضفى الطابع الجدي على اعمال تشيخوف هو إنسانيته ،ليس في المضمون فحسب ، بل وبالشكل أيضا . ومهما كانت المسائل التي تناولها تشيخوف معقدة ،فهي في التحليل النهائي تقدم مسائل محددة عن العدالة والظلم ، خاصة بالنسبة للبطل نفسه ... ومثال على ذلك المناقشة الفلسفية التي تدور بين كروموف و راجن في قصته (العنبر رقم ٦) إن أفكار راجن والتي هي حصيلة نقاشات فلسفية يعرفها القارئ وتستثير مشاعره كلية ويتجاوب بعقله وقلبه مع النهايات المأساوية التي تشكل المصير النهائي للشخصية المحورية وللقصة بشكل عام . وهنا يثير تشيخوف مشكلة يجسدها في جملة من الصور الفنية ، حيث يقوم بترجمة تلك النقاشات الفلسفية الى لغة المبادئ الأخلاقية بطريقة خاصة في بناء قصته التي تنتهي بالحبس غير المتوقع لراجن في (العنبر رقم ٦) وفي قصصه الأخرى ،تتحقق النتائج نفسها بتوافق مع الأشكال القصصية .

فمشاهد سقوط الثلج في قصة (الهجوم) مثال من هذا النوع حيث يتمكن تشيخوف من تحقيقها عندما يقدم صورة ذاتية للحقائق الداخلية التي تعتمل في نفسية البطل . إن هذه المشاهد ، التي تعكس التغييرات ليس في المزاج فحسب بل وفي حكم الطالب فاسيليف ، ولربما في أكثر من اي عنصر فني آخر في القصة ،تقود القارئ الى النهايات التي رسمها البطل .

إن إظهار الحقيقة الموضوعية من خلال الإدراكات الحسية لها (من قبل شخصيات القصة) ساعدت تشيخوف في وضع المبدأ الأساسي لمواهبه الشعرية موضع التطبيق ، مبدأ الموضوعية الذي يتطلب ترجمة حقيقية للواقع الإجتماعي .

لم يحاول تشيخوف فرض آرائه على القارئ ، بيد أن هذا لايعني من أنه لايمتلك آراء خاصة عن الأحداث التي يصفها أو أنه يعتبر جميع أبطاله جديرين بالثناء على حد سواء... ففي عام ١٨٩٠ كتب تشيخوف الى الناقد الذي هاجم قصته (سارقي الخيول) قائلاً: " انت تعنفني بسبب موضوعيتي ، واصفا إياها باللامبالاة اتجاه الخير والشر ، وغياب المثل والأفكار وهلمجرا... تريد مني أن أصف سرقة الخيول بأنها أمر سيء ، لكن هذا معروف دون أن أقوله ... فحين أكتب ، أعتمد على قارئي ليقوم هو بتعويض العناصر الذاتية المفقودة " ويضيف قائلاً : " عليك أن تعرف بأن سارقي الخيول هم ناس أثرياء وليسوا فقراء ، اناس يعتبرون سرقة الخيول هواية لهم وليست عملية سرقة "

ن تعليق تشيخوف بأن سارقي الخيول " ليسوا فقراء بل أثرياء " لايمكن أن يؤخذ به بالطبع كتبرير لإفعال هولاء الناس ، بل على العكس فهو بذلك يقود القارئ بعيدا عن الظروف الممكنة التي تشكل ارضية لمثل هذه الحالات كاليأس والفقر والجوع .

الموضوعية لاتعني على الإطلاق عدم إمكانية تخمين الحقائق ... فالمفاهيم الجديدة التي جاء بها تشيخوف تنطوي على تخمين تاريخي للحقائق وقدرة على التمييز بين الدائم والضروري من الزائل والتافه ... وقد فهم تشيخوف هذه الحاجة الملحة في الأدب منذ اعماله الأدبية المبكرة ...ففي عام ١٨٨٣ كتب تشيخوف لاخيه الكساندر ردا على رسالته التي انتقده فيها

إن إنسانية تشيخوف وفضحه العنيد للأخلاق اللاإنسانية للبرجوازية يستخدمها النقاد الغربيون بشكل ديماغوغي في تشويه أدبه ووصف تشيخوف بأنه رائد الأدب المتفسخ في القرن العشرين . فهم لاينظرون الى قدرة تشيخوف على تناول التفاصيل بشكل تصويري وقدرته في بناء الموضوع بشكل عام وإدخال التعقيد عليه ، بل نراهم يتحدثون عن الحظ على أنه العنصر المسيطر في أعمال تشيخوف

بأنه ذاتيا ويتناول في قصصه ما هو تافه وثانوي قائلاً : " يجب عليكم انتم معشر الأقوياء ، المتعلمون والمثقفون ، التأكيد على ما هو ضروري ويحرك المشاعر غير الظاهرة ... الذاتية بالنسبة لكم شيء مرعب ."

والموضوعية ، بالنسبة الى تشيخوف ، تعني المحاولة لفهم الحقائق وتفسيرها بصورة صائبة... وهي عنصر مسيطر في مواهبه الشعرية . وهكذا نرى أن تشيخوف يعتمد بشكل تام على وعي قرائه مع اهتمامه في الوقت نفسه ليس في توسيع معرفتهم بموضوع أو بآخر فحسب ،بل بتحفيز وعيهم الأخلاقي ايضا . ويقدم ذلك ليس بشكل مواعظ ، بل بإشراك قرائه برؤية العالم من خلال بناء عمله الخيالي والعاطفي والذي يقود القراء بشكل تدريجي الى تشكيل فكرة معينة .

إن ثقة تشيخوف بقرائه قوية جدا لدرجة انه يفسح المجال امامهم ليحدسوا عاطفيا ما يرسمه فنيا ... إن قناعته هذه قد تبدو متناقضة للوهلة الأولى ، لكن كلما يكون الوصف ظاهريا ولاباليا ، كلما يكون الأنطباع الذي سيحدثه لدى القراء أقوى ... وقد كتب تشيخوف الى أفيلوف قائلاً : " حين تقوم بوصف التعيس والبائس وتريد تحريك عاطفة القارئ ، عليك أن تكون باردا . نعم عليك أن تكون باردا ." ثم كتب حول الموضوع نفسه قائلاً : "بإمكانك أن تجعل القارئ يبكي حين يقرأ قصة ما وأن يعاني مع أبطالها بطريقة لايلحظها القارئ وحينما يكون الوصف موضوعيا ، كلما يقدم إنطباعا اقوى ."

لقد كان تشيخوف صادقا في عقيدته الجمالية هذه حتى النهاية . فعلى سبيل المثال ، لم يستخدم اية كلمة إزدراء في وصف اسينيا في قصته (الوادي) . فقد وصف عملية قتلها للطفل الرضيع وكأنها عملية اثم لطيفة وكان لهذا المشهد وقع على القارئ كما توقعه تشيخوف ...ومن المحتمل أن يكون ذلك واحدا من أكثر المشاهد بروداً في كل الأدب العالمي .

إن تشيخوف يفكر ويحس كما يفعل أبطاله ، لكن بناء قصته لايسمح له احيانا أن يقود القارئ لرؤية الحقائق ونهاياتها ...وفي مثل هذه الحالات يلجأ الى تكملته بتعليقات غير فضولية والتي يتم نسجها في القصة بشكل بارع من خلال المنولوجات الداخلية لابطاله في لحظة تبصرهم ويقظتهم لتقييم الحقائق عن حياتهم الخاصة وحياة من يحيطون بهم .

إن الربط الدقيق بين الموضوعي والذاتي هو الطريق الأمثل لدى تشيخوف للتغلب بدون صعوبة على الإمكانات المحدودة لدى بعض شخصياته ،امثال برونزا صانع التوابيت في قصته (عازف الكمان)...

وبهذه الطريقة ايضا يستطيع تشيخوف أن يتجنب إعطاء شخصياته شكلاً مثاليا يضعهم فوق الواقع . وإستخدم تشيخوف هذا المبدأ بشكل رائع في قصته (السهب) حيث إستطاع أن يصور بشكل فني عملية إمتزاج أفكار وملاحظات الصبي يغورشكا خلال عبوره السهوب ، مع ذكريات القاص ، وكيف تتحول فجأة الى تعليقات فلسفية وعاطفية حول مصير الوطن .

إن إنسانية تشيخوف وفضحه العنيد للأخلاق اللاإنسانية للبرجوازية يستخدمها النقاد الغربيون بشكل ديماغوغي في تشويه أدبه ووصف تشيخوف بأنه رائد الأدب المتفسخ في القرن العشرين . فهم لاينظرون الى قدرة تشيخوف على تناول التفاصيل بشكل تصويري وقدرته في بناء الموضوع بشكل عام وإدخال التعقيد عليه ، بل نراهم يتحدثون عن الحظ على أنه العنصر المسيطر في أعمال تشيخوف ، ويحاولون أن يظهروا بأن صورة العالم كما رسمها تشيخوف خالية من المنطق وذات نهاية مضحكة . لقد أخفق هولاء النقاد في إكتشاف القيمة الحقيقية لإعمال تشيخوف والنغمة العاطفية التي تتميز بها قصصه ورواياته ومسرحياته . كما لم يأخذ هولاء النقاد بنظر الإعتبارتفاؤل تشيخوف وإيمانه بالإنسان وقناعته الراسخة بأن (كل شيء في الإنسان يجب أن يكون جميلا ، وجهه ، ملابسه ، روحه وأفكاره) وبأن البشر يمكنهم أن يبنوا مجتمعا يستند الى مبدأ العدالة .وتتضمن إنسانية تشيخوف احترامه للإنسان والإيمان بإمكاناته غير المحدودة وتقييمه الواقعي له كما هو ... لقد لعب عمل تشيخوف التاريخي دورا هاما في تقييم ليس فقط الحياة المعاصرة ومشكلاتها فحسب ، بل لمعاصريه ايضا . فعلى سبيل المثال ، ما موقف تشيخوف من رانفسكايا في قصته (بستان الكرز) وأي نوع من البشر هي ؟ هناك من يقول بان تشيخوف يصورها على انها إنسانة شفوقة ولديها رحمة على طريقتها الخاصة وبأنها إنسانة مستقيمة بشكل يلفت النظر . لكنها في الحقيقة ليس كذلك .فلطفها ووداعتها لاينفصلان عن غرورها وتهورها وهي مثل بقية شخصيات تشيخوف الأخرى نموذجا للنظام البرجوازي الإقطاعي في روسيا .

ومن الجدير بالملاحظة ، إن إنسانية تشيخوف قد وضعت متطلبات كبيرة ليس فقط على النظام الإجتماعي القائم بل ايضا على الإنسان نفسه . فلا مكان لاولئك الذين يجسدون النظام الحاكم في داخلهم ويعززونه .إن موقف تشيخوف من شخصياته يشكل مزيجا معقدا. الشفقة والتأنيب. الشفقة لكونهم ضحايا النظام ، والتأنيب لنقص الرغبة لديهم في التغيير ورضاهم عن أنفسهم .

وليس أقل تعقيدا ، تصوير تشيخوف لابطاله الإيجابيين . فهنا يناضل تشيخوف من اجل الحقيقة ويتجنب المثالية ،ويبتعد عن التمويه على نقاط الضعف لدى ابطاله ومن يشاركونه طريقة تفكيره ، وإن همه الرئيس هو فهم منطلقاتهم الفكرية والروحية وصراعهم مع النظام البرجوازي . ومن الملاحظ ،فإن ابطال تشيخوف ناس من فئات وطبقات إجتماعية مختلفة فمنهم التاجر وموظف البنك ممن يعكس عالمهم الداخلي جوهر الثقافة والقيم الأخلاقية في روسيا قبل الثورة وبذلك يكون تشيخوف قد أبدع في تطوير وإغناء مبادئ التعميم المجرد .

تشيخوف سحر الكلمة وبساطتها

ولد «أنطون تشيخوف » عام ١٨٦٠في مدينة تاغا نروغ الروسية الجنوبية حيث أمضى طفولة حزينة كئيبة، درس الطب في مطلع شبابه ،ولكنه اختار مهنة الأدب في النهاية ،واحتل مكانة مرموقة في عالم الفن والأدب ،وأصيب بمرض السل ،فأقام في المصح فترة من الزمن للاستشفاء ولهذا كانت حياته مقسمة بين العمل وتناول الأدوية ،وكانت نظرته الى الحياة نظرة قاتمة متشائمة .

لم يتمتع (تشيخوف) بمرح الطفولة وبهجتها ،فقد كان يحرس البقالة التي يديرها والده ،ويسهر فيها حتى ساعة متأخرة من الليل ولعل هذا ماجعل نظرته الى العالم الذي يحيط به مثل نظرة الكبار كان يلاحظ المارة ،ويصغي الى أحاديثهم ،وكان والده يعامله معاملة قاسية ،ولايتورع عن استعمال السوط في ساعات غضبه ،حتى إذا انتهت فورة غضبه ذهب الى الكنسية والمدرسة ،وترعرع في جو يسوده العنف والتزمت .

لم يكن (تشيخوف) يطمح الى إلقاء الدروس في الاخلاق والفلسفة ،شأن غيره من كبار المفكرين والأدباء بل اكتفى بتصوير مشاهد حية كان ينتزعها من جحيم الحياة ،ويرسمها بريشة الفن والابداع ،فجاءت لوحات خالدة تنبض بالحيوية ،وصورة رائعة للواقع الأليم .

إن موهبة (تشيخوف) في رؤية العالم تضعه في عداد تلك الفئة الرائعة من الكلاسيكيين في القرن التاسع عشر ،فقد رأى (ليف تولستوي) فيه فنانا ليس له نظير ،وفضله على (تورغينيف) و(دوستوفسكي) وعلى نفسه أيضاً أما (مكسيم غوركي) فقال: تعود قوة ((تشيخوف)الى أنه لم يختلف شيئاً كما لم يصور شيئاً لاوجود له في الحياة ،هذا هو (تشيخوف) الطبيب والأديب والانسان ،وأما (فلاديمير كوولينكو) فقد وصف واقعية (تشيخوف) انها فوق الواقعية ،وقال إن (تشيخوف) كان في شبابه أشبه بشجرة بلوط فتية تفرعت غصونها في شتى الاتجاهات على نحو لم يأخذ شكلاً محدداً بعد ، و لكنها تنح عن الصلابة و الجمال المتكامل لشجرة ستكون جبارة في المستقبل .

واضاف الكاتب الروسي (كورولينكو) كان وجه (تشيخوف) على الرغم مما يبدو فيه من ذكاء ، يحمل تقطيبة معينة تذكرك بشاب قروي ساذج ، و كان كذلك ذا جاذبية خاصة ، وحتى عينيه الزرقاوين اللامعتين العميقتين كانتا تشعان فكراً، و كانت فيه في الوقت نفسه ، تلقائية تكاد تكون طفولية ، وكانت السمة المسيطرة على هيئته كلها ،و كذلك على كتاباته هي بساطة حركاته واساليبه وحديثه في بداية عام ١٨٨٧ ظهر لتشيخوف كتاب (قصص منوعة) وهي التي نشرت في مجلات (بودلينك) و (ستريكوزا) و (اوسكولكي) ، وقد لفت هذا ، فور صدوره ، انتباه جمهور عريض من القراء ، و قد حظي بنجاح كبير و بدأ الكتاب يكتبون عنه .

و بعد صدور كتاب (قصص منوعة) اصبح (أنطون تشيخوف) مشهوراً على الفور على الرغم من ان تقدير هذه الموهبة الجديدة كان مثاراً للخلاف و الجدل وكان الكتاب يشع ببريق الفكاهة و المرح و بكثير من سرعة البديهة الاصيلة و الايجاز الفائق و قوة التعبير .

و يذكر ان (تشيخوف) كان عندما وصل الى موسكو كاتباً مبتدئاً و مؤلفاً لبعض المقالات و الزوايا الصغيرة الفكاهية ، فقد انتسب الى كلية الطب ، وانهى دراسته الجامعية ، دون ان ينفصل او يبتعد عن عالم الادب ، و صار الطبيب الشاب يعالج المرض و ينشر في المجلات الفكاهية مقالات و قصصا قصيرة كان اجملها قد صدر بالاسم المستعار (أنطوشا تشيخونته) .كان تشيخوف يشعر على الدوام ان الادب لا يشبع رغباته و طموحاته ، لذا سعى للولوج في الحياة و المشاركة فيها ، و ظلت هذه السمة في كيانه حتى النهاية ، وفي قرية (ميليخوفو) القريبة من موسكو ، التي احبها تشيخوف ، عاش ست سنوات ساعد خلالها الفلاحين كطبيب ، وبنى المدارس وسافر الى المحافظات والمناطق التي كانت تعاني من الجوع ، وفي اثناء انتشار وباء الكوليرا قدم (تشيخوف) بمفردات خدماته لمنطقة فيها الكثير من السكان ، ووضع حد الانتشار هذا الوباء الفتاك كما شارك في الاحصاء العام للسكان عام ١٨٩٧ .

كتب (تشيخوف) في (ميلخوفو) اكثر من اربعين مؤلفاً وكانت هذه الفترة غنية بإنتاجه الادبي ، منها (البيت ذو العلية) و (النورس) و (الطالب) و (تشايكا) تناول فيها الحياة اليومية بسخرية لاذعة و صور مشاهد عائلية ،وروى حكايات ابطالها التجار و الطلاب و الموظفين .

ولما تفاقم مرضٍ (تشيخوف) سافر الى القرم او (يالطا) بعيداً عن موسكو ، حيث بنى لنفسه بيتا (الكوخ الابيض) في يالطا وزرع حديقته بيديه ، و ظل كسابق عهده يساعد الجميع ، و يستقبل كبار رجال الثقافة و الادب ، الذين كانوا يزورونه دائماً مثل (تولستوي) و (غوركي) و (بونين) و (رحما نينوف) و (شاليا بين) كما واصل الكتابة ،وابدع تلك الاعمال الشهيرة (حبوبتي) و (السيدة و الكلب) و (الاخوات الثلاث) و (بستان الكرز) .

إن ابداعات (تشيخوف) قد حظيت بقيمة عالمية خارج روسيا:لقد احب تشيخوف شو » و« أرنست همنغواي » و « جون بريستاي » و « توماس مان » ، وكتب الأديب الفرنسي الشهير « فيركور »: ومن المستبعد في هذه الايام أن نجد روائيا فرنسيا واحدا ينفي تأثره المباشر بتشيخوف وكتب « فرنسيس كينغ الانكليزي رئيس نادي الفنانين والكتاب يقول : في رأيي أن أنطوان تشيخوف يتبوأ مكانه عالمية في الأدب لا في مجال القصة القصيرة فحسب ، لكن في الدراما أيضا ولا يقل أهمية عن « شكسبير » و« ابسن » توفي انطوان كشيخوف عام ١٩٠٤في مدينة (بادن الألمانية ، حيث كان يعالج من المرض وهكذا عاش أربعا وأربعين سنة فقط إلا أنه ترك تراثا أدبيا ثميناً.

من عام الى عام تتسع دائرة قراء تشيخوف .. تشيخوف حي ، انه يكافح مع الناس البسطاء ، وحلمه بمجتمع انساني رائع متناغم قد كان ومايزال منارا للملايين الغفيرة من البشر في كل ارجاء الارض.

المحرر

إن أول ما يلفت نظر الدارس لحياة تشيخوف تلك العاطفة القوية التي تختلج في صدره بحب الحياة وحب الإنسان، فعلى الرغم من أنه قاسى ألواناً من العنت والآلام منذ ولادته حتى مماته إلا أنه لم يضق يوماً ذرعاً بالحياة، ولم يحس بالاشمئزاز نحو البشر. فلقد ولد في بيت فقير، وعاش طفولته في جو عابس متجهم. وبينما كان زملاؤه أطفال المدرسة يلعبون في الطريق بعد انتهاء اليوم المدرسي، كان عليه أن يرابط في حانوت أبيه البقال. ولم يكد يبلغ العاشرة حتى أفلس أبوه، وفرّ من مدينة (تانرو) إلى موسكو، وارتحلت معه الأسرة عدا أنطون الذي لبث في المدينة ليواصل دراسته الثانوية. واضطر أن يعمل بعد أوقات الدوام المدرسي محترفاً التعليم لكي يعيل نفسه. ولما أنهى دراسته الثانوية والتحق بأسرته في موسكو ضاعف جهوده في العمل ليكسب من المال ما يمكنه من الإنفاق على أسرته وعلى مواصلة دراسته في كلية الطب بجامعة موسكو. واحترف الصحافة في هذه الفترة من حياته.

تشيخوف مع فرقة مسرح موسكو للفن الحديث

مدخل لحياة تشيخوف وأدبه

شاكر خصباك

فكان يمدّ عدة صحف ومحلات فكاهية بالصور القلمية والأخبار والأقاصيص الهزلية. ومما يثير الدهشة أن يكون لشخص يعيش تلك الحياة القاسية هذه المقدرة الرائعة على كتابة الأشياء الفكاهية. وما كاد يتخرج من كلية الطب حتى بدت عليه أعراض مرض السل، وربما كان مرجع مرضه إلى الإرهاق البدني الذي كان ينتابه في حياته اليومية. وظل يصارع هذا المرض صراعاً بطولياً حوالي عشرين عاماً. وضحى بسببه بكثير من متعه ورغائبه، واضطر أن يعيش بعيداً عن موسكو، المدينة التي أحبها من أعماق قلبه، متنقلا بين يالطا وشبه جزيرة القرم، وجنوب فرنسا، وألمانيا. ثم ختمت مأساة حياته في الثاني من تموز عام ١٩٠٤.

لقد أمضى أنطون تشيخوف الأعوام الأربعة والأربعين في حياة مشرفة، وكان أدبه في الواقع صورة صادقة لتلك الحياة المجيدة. وقد أوقف حياته دائماً لخدمة الإنسانية. فعندما كان يمارس الطب كان يرفض الأجور التي يقدمها إليه الفلاحون الفقراء. وكان ذلك يثير دهشتهم وعجبهم. وحينما انتشر وباء الكوليرا في روسيا عام ١٨٩٢ هجر الكتابة وعمل مشرفاً صحيا في إحدى اللجان الطبية لمكافحة هذا المرض. وكان يسافر إلى القرى المجاورة ويجمع الناس ليلقي عليهم محاضرات صحية.

ولقد بادر إلى نجدة سكان مقاطعة نوفجورد عندما اجتاحتها المجاعة عام ١٨٩٢، وشكّل منظمة لجمع الإعانات لشراء الأطعمة والأبقار والخيول للفلاحين الفقراء.

وبالرغم من صحته المعتلة لم يدع تشيخوف فرصة يستطيع أن يؤدي فيها خدمة لوطنه أو للإنسانية إلا واستغلها. ففي عام ١٨٩٧ بذل جهوداً عظيمة في إحصاء النفوس العام الذي جرى تلك السنة. ولم يكن متصنعا في عطفه على البائسين، فقد خطر له عام ١٨٩٠ أن يحقق في حالة المحكومين بالأشغال الشاقة، الذين تبعدهم الحكومة إلى شبه جزيرة سخالين. وشد الرحال عبر ثلوج سيبريا إلى تلك المنطقة النائية. واتصل هناك بكل سجين من ساكني تلك المستعمرة البالغ عددهم عشرة آلاف سجين، واستقصى أحوالهم. ثم أصدر كتاباً بعنوان (الهاربون في سخالين) يُعدّ الدراسة الأولى من نوعها في مباحث وإدارة وإصلاح السجون. وقد كشف في كتابه عن وحشية الحكومة القيصرية في معاملة الشعب الروسي. كذلك اشتمل على صور قلمية طريفة لبعض المسجونين. ومن الغريب أن ينجو تشيخوف من عقاب الحكومة القيصرية التي لقي على يديها أغلب الكتاب الروس ألوان العذاب وصنوف التشريد والسجن والانتقام بل والموت.

ولم يألُ تشيخوف جهداً في مساعدة الفقراء. ففضلاً عن قيامه بتطبيبهم مجاناً، وأنشأ في القرية التي يقيم فيها والقرى المجاورة عدة مستشفيات على حسابه الخاص، كما سعى في بناء عدد آخر في النواحي المجاورة، وشيد أيضاً بضع مدارس على نفقته، وحثّ السلطات الحكومية لتشييد مدارس أخرى.

وهكذا نلمس سعي تشيخوف الدائب -قولاً وفعلاً- للقضاء على عدوه الأكبر، الانحطاط بكل لون من ألوانه. ويقول الكاتب مكسيم غوركي في هذا الصدد: «كان الانحطاط عدوه الأول، وكان يناضل ضده طوال حياته، ويحاربه بقلم ساخر حاد الشفرة».

لم يكن تشيخوف يكتب عن الفقراء أو أفراد الطبقة الوسطى وهو قابع بين جدران بيته الأربعة كما يفعل أغلب كتّابنا. كان يحاول جهد استطاعته أن يتغلغل في أعماق مجتمعه، ويندس بين الناس البسطاء، يصغي إلى أحاديثهم، ويسمع شكواهم، ويتلمس مشاكلهم، وعدّته ملاحظة دقيقة حادة لا تفلت من مجالها أدق الإشارات أو اللمحات! ويالها من ملاحظة مدهشة حقاً! فإذا أضفنا إلى هذا الاندماج بالناس وهذه الملاحظة الدقيقة، إدراكاً عميقاً لمشاكل الحياة ولنفسيات الناس، ومشاركة وجدانية لهم، وحسّاً دراميا وفكاهيا عميقاً، أدركنا لماذا صار أدبه نموذجا عاليا للأدب الرفيع، فياضاً بأرق العواطف وأدق اللفتات الإنسانية.

كان تشيخوف يصرح دائماً أنه لا يمكن للكاتب أن يخلق المواضيع من ذاته، بل ينبغي عليه أن يحتك بالناس ويسمع أحاديثهم ويحاول فهم مشاكلهم، وبذلك يستطيع أن يعبر عنهم بصدق أو كمال. وبما أنه لم يكن يكتب للشعب الروسي فقط، بل للإنسانية جمعاء، فقد آمن بضرورة الرحلات ليطّلع على حياة مختلف الشعوب. وقد سافر فعلا إلى الشرق الأقصى والأوسط، وجاب بلدان أوروبا، وكان يود أن يسافر إلى أستراليا وأمريكا لولا صحته المعتلة.

ولشخصية تشيخوف جوانب إنسانية أخرى تظهره بمظهر الإنسان الكامل. فلقد باع حقوق طبع مؤلفاته السابقة واللاحقة إلى الناشر البطرسبورغي ماركس عام ١٨٩٩ لضائقة مالية ألمت به مقابل خمسة وسبعين ألف روبل، فلما انكشف أمر هذه الصفقة وعرف بها الكتّاب الروس، نظّم جماعة منهم بالاشتراك مع بعض العلماء والممثلين والسياسيين عريضة احتجاج إلى ذلك الناشر يطالبونه بفسخ العقد. ولما بلغ تشيخوف أمر الاحتجاج رفض الموافقة عليه محتجاً بأنه قبل التوقيع على العقد بمحض إرادته الشخصية، ولا مجال هناك لأن ينقض اتفاقاً وقّعه بكامل حريته!

وثمة حادثة أخرى تدل دلالة واضحة على صلابته في الحق. فقد استطاع القصصي الشاب مكسيم غوركي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أن يثبت مهارة فائقة في فن القصة وفنون الأدب الأخرى. فانتخب عام ١٩٠٢ عضوا في الأكاديمية العلمية في بطرسبورغ، ولكن السلطات الحكومية ضغطت على الأكاديمية لتلغي هذا الانتخاب، فما كان من أنطون تشيخوف إلا أن قدّم استقالته من عضويتها احتجاجاً على هذا القرار.

لقد اتفق أغلب القصصيين والنقاد في العالم على اعتبار أنطون تشيخوف أستاذ القصة القصيرة، وأن أسلوبه فيها يمكن أن يسمى السهل الممتنع. والواقع أن القصة تدين له بفضل كتابتها على الوجه الأكمل. وقد ابتعد فيها عن القواعد المألوفة في القصة القصيرة من تفصيلات لا ضرورة لها، ومن غموض وإثارة في البداية والنهاية. ولقد اتخذها وسيلة للتعبير عن (الحياة) واكتشاف مجاهل محورها (الإنسان) كي يرسم له حياة مجردة من الحماقات والمعاناة. لذلك يحس قارؤها حرارة الحياة في شخصياته، فهم ليسوا مجرد أسماء على الورق، بل إن كلاً منهم شخص حي يتمثل حركاته وسكناته ويتجاوب معه في أفراحه وأحزانه. لقد آمن تشيخوف بأن على القصة أن تكون نابضة بالحياة مادامت تعالج شؤون الحياة.

والواقع أن القصة التشيخوفية مرّت بمراحل عديدة. فقد كانت في أوائل حياته الأدبية قصة فكهة ساخرة تفتقرُ إلى العمق والتركيز، بل وقد تميل إلى الهزل أكثر من استهدافها الجدّ. ومنذ بداية الثمانينات من القرن التاسع عشر حققت القصة التشيخوفية نوعية جديدة على الصعيد الفكري والفنّي واكتسبت صفات متميزة، وهي مرحلة تكاد تكون مغايرة تماماً للمرحلة السابقة. ويمكن القول إن مرحلة الثمانينات هذه وما تلاها هي التي أنتجت ما نسمّيه بـ(القصة التشيخوفية) وهي القصة المعروفة السمات التي ذكرناها أعلاه.

ولقد اشتملت القصة التشيخوفية على نماذج متعددة. فهناك نموذج القصة القصيرة للغاية والشديدة التركيز أمثال قصة (بعد المسرح) التي لا تكاد تتجاوز بضع صفحات، وهناك النموذج المتوسط الطول وهو نموذج القصة التشيخوفية بحقّ من أمثال (المعلمة) و(الساحرة) و(فولوديا) و(فتاة الكورس).. إلخ. وأمثال هذه القصص تنطوي على حسّ إنسانيّ مذهل. ثم هناك أخيراً القصص الطويلة التي تكاد تتحول إلى رواية قصيرة وهذه القصص تحفل بالتفاصيل ذات الدلالة العالية عن حياة

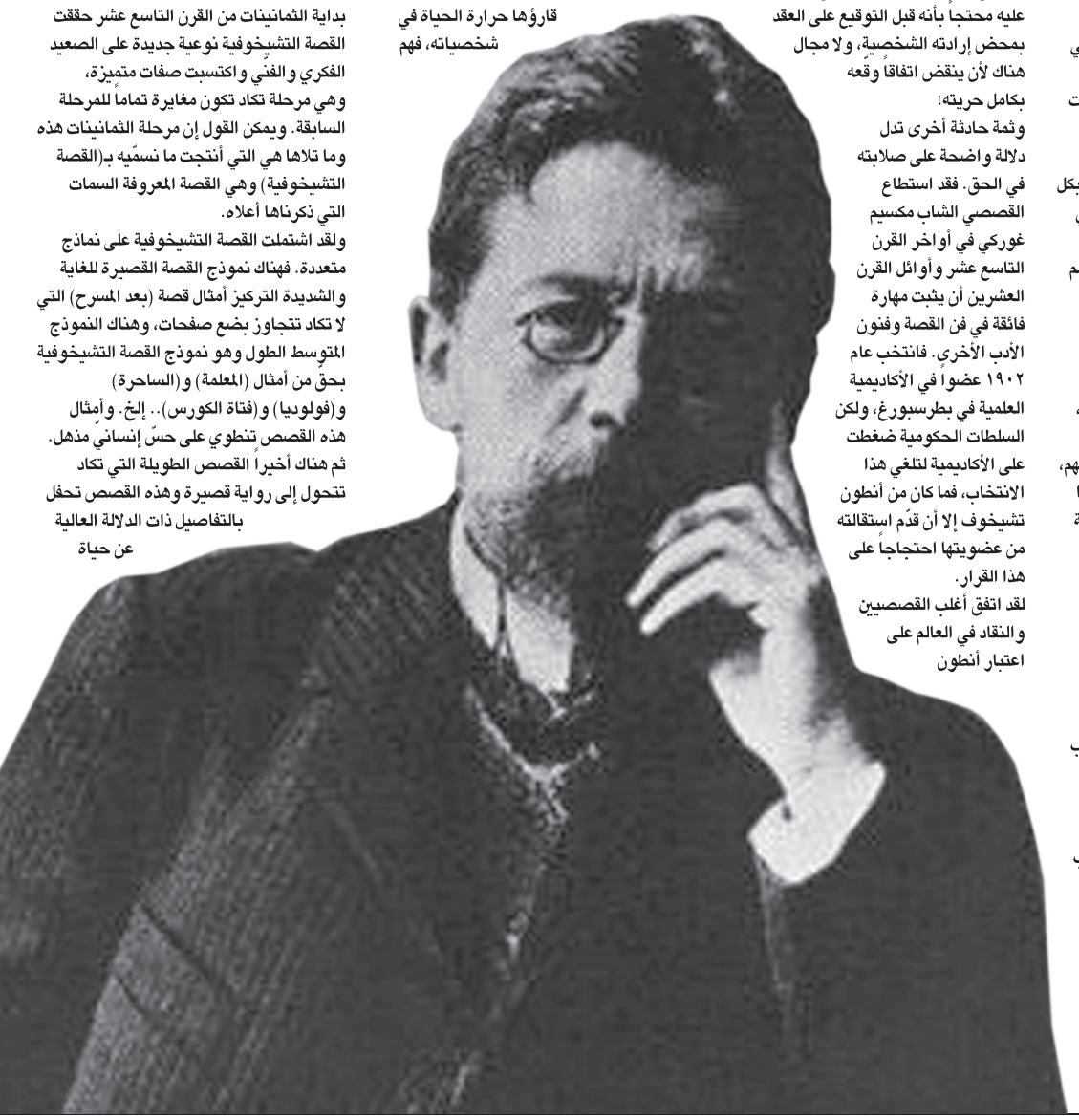

الشخوص. وهي تجمع بين مزايا الرواية فيما تمتلكه من مساحة ممتدة لعرض تفاصيل الحياة الخارجية والداخلية للشخوص، وفي الوقت نفسه تظل محتفظة بسمات القصة التشيخوفية القصيرة التي تتميز بالتركيز والتكثيف الشديدين. وقد أصاب تشيخوف في هذا النموذج من القصص نجاحاً منقطع النظير وبلغ فيها قمة الإبداع. ولعل من أشهرها (قصة رجل مجهول) و(المبارزة) و(حياتي) و(العنبر رقم ٦) و(في السهوب) و(النطاطة).

وقد يتبادر إلى ذهن البعض أن أقاصيصه لا تخلو من جفاف وأنها تنقصها عنصر التشويق، ولكن الواقع غير هذا. فالقارئ الذوّاقة يشعر بمتعة لا حدود لها في قراءتها. وبالرغم من أنه لم يتكلف الحوادث المثيرة شأن الكاتب الفرنسي دي موبسان مثلاً أو الكاتب الإنكليزي سمرست موم، فالقارئ يجد نفسه مستغرقاً في متابعة قصته بشغف عظيم.

ولم يصب تشيخوف هذا النجاح العظيم في القصة القصيرة فحسب، بل أصابه في المسرحية أيضاً. ومع أن أستاذيته في فن المسرحية لا تزال مثار الجدل بين النقاد في الوقت الحاضر، إلا أنهم سيتفقون على ذلك في المستقبل غير البعيد حتماً. وقد اتبع في مسرحياته الأسلوب ذاته الذي كتب به قصصه؛ مبتعداً بها عن (التهريج المسرحي).

والواقع أنه كان مقلاً أساساً في كتابة المسرحيات. فلم تتجاوز مسرحياته الطويلة الخمس مسرحيات إضافة إلى بضع مسرحيات ذات فصل واحد. ولعل عدم شهرته العالمية في زمنه ككاتب مسرحيّ يعود إلى أنه كتب مسرحياته بأسلوب جديد لم يكن مألوفاً في المسرح الغربي. وكان الأسلوب السائد قبله هو أسلوب الكاتب النرويجي هنريك إبس المسمى (الواقعية الجديدة) والذي كان ثورة على الأسلوب الذي كان يطلق عليه اسم (الواقعية الكلاسيكية) والذي كان طاغياً على المسرح في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ولقد تبنى تشيخوف في أسلوبه الجديد البساطة المتناهية في الأحداث مع شحنات عاطفية رهيفة ومعقدة. وجميع أشخاص مسرحياته أناس بسطاء أشد ما يلفت النظر إليهم عواطفهم الحزينة الهادئة وحياتهم المعتمة ومشاعرهم وأفكارهم الإنسانية العميقة. لذلك واجهت مسرحياته صعوبة بالغة في تجسيدها على المسرح الغربي الذي لم يكن يألف هذا النوع من المسرحيات والتي تتطلب صدقاً فنيّاً عالياً. ولم يتحقق لها النجاح إلا بعد أن سادت المسرح الغربي منذ أواخر الأربعينات التيارات الواقعية الجديدة على يد المسرحيين الأميركان أمثال تنسي وليامز وآرثر ميلر ويوجي أونيل، وهي التيارات التي اعتمدت الصدق الفني في التعبير عن الحياة والابتعاد عن التصنّع والتهويل. ومنذ ذلك الحين ومسرحيات تشيخوف تلقى عناية متزايدة من قبل المهتمين بالمسرح في دول أوروبا الغربية وفي أميركا.

وسنقتطف فيما يلي نبذاً من دراسات بعض الكتاب التي توضح القيم الفنية لقصصه ومسرحياته.

أقوال النقاد في أدب تشيخوف:

قال الناقد ابراهام يارموليسكي: لقد تغلغلت أنظار أنطون تشيخوف في زوايا كثيرة من الحياة الروسية، وكانت أنظارا فاحصة ودودة، فاستطاع في النهاية أن يقدم لنا وجهاً رائعاً، كاملاً، قوياً لتلك الحياة، عن طريق البشر الذين يضطربون فيها، والذين وجدنا أنهم يشبهون بقية البشر في أنحاء الأرض. وقد بدأ تشيخوف حياته الأدبية كاتباً فكاهياً لا تعدو بعض كتاباته عن ملاحظات عابرة، لكن تلك الفكاهة لم تظهر فيما بعد في أعماله الناضجة إلا في لمحات خاطفة، متلفعة أحياناً بروح تهكمية. ولقد اختار شخصياته من بين أبناء القرى وعمال المصانع، ولكن النخبة الكبرى منهم كانت من أفراد الطبقة الوسطى. ويعرض لنا دائماً أشخاصاً تتصف حياتهم بالكآبة، والفراغ، والضيق، واليأس. وقد تساورهم أحلام طويلة في أشياء تجعل لوجودهم معنى ولوناً وعمقاً، ولكن عوزهم إلى قوة الإرادة الكافية، وإلى الظروف المساعدة، يجعل حياتهم محافظة على قتامتها.

إن الأمثلة التي تواجهنا في قصصه دائماً هي رجل أو امرأة أو طفل يحس إحساساً عميقاً أنه يعيش في قيد. وهو في أغلب قصصه يقدم لنا المشاعر التي تنتاب الشخص، ولكنه لا يقدم لنا حلاً لمشكلته، ولا يخرجه من مأزقه. ولو درسنا الأعوام التي ظهرت فيها أحسن كتاباته لوجدناها تتفق مع فترة الانتكاس السياسي ورد الفعل النفسي الذي أصاب الناس منذ اغتيال ألكساندر الثاني حتى فترة النشاط الاشتراكي عام ١٩٠٥. ولعل ذلك يلقي ضوء على سبب اصطباغ أدبه بتلك الصبغة.

ولقد استغل تشيخوف معلوماته الطبية وتجاربه في هذا الميدان في قصصه وروايته، لذلك تميزت بعضها بملاحظات جافة يبدو فيها طابع المستشفيات. ولكن ما يضطرم فيها من عاطفة قوية، وهي أعظم مميزات تشيخوف، ارتفعت بتصويرها الداخلي إلى أسمى مراتب الأدب الرفيع. وثمة ميزة واضحة أخرى في أدبه هو أنه -أكان يكتب عن فلاحة أم مدرس فاشل أم مراهق متعتب أم أحد أفراد الطبقة الوسطى المنبوذين أم بورجوازي ساخط- يضيف دائماً شيئاً جديداً إلى معلوماتنا. بل إن بعض قصصه جرت مجرى الأمثال كما في قصة (المحبوبة) وقصة (رجل في قالب).

ولتشيخوف مقدرة عظيمة في إبراز شخصياته بإطارها الاجتماعي الخاص مستعيناً بتصوير تفصيلات حياتها اليومية الدقيقة.

ويقتصد تشيخوف في الوصف عموماً، ويذكرنا أسلوبه بتورغنيف، ذلك الأسلوب الذي يجعل من وصف المنظر الطبيعي دعامة هامة ترفع من قيمة العمل الأدبي. وإلى جانب هذا كله فقصصه بما فيها من مقت للآلية التي تفقد الإنسان إنسانيته، بما فيها من استكناه للعقد النفسية، بما فيها من عرض للتجربة الإنسانية غير المنتهية، تقدم لنا حياة حقيقية كاملة.

لم يكن تشيخوف يؤيد صراحة مذهباً من المذاهب السياسية، لكن كتاباته برهنت أكثر من مرة على اتجاه الحقيقي. وهو في هذه الصفة شبيهاً بإيفان تورغنيف. فلقد سبق لتورغنيف أن أعلن عن مبدئه في الحياة قائلاً: «إنني أديب واقعي فوق كل شيء، ويهمني الجانب الحي في الوجود الإنساني قبل كل شيء، ولست أكترث لأي شيء غير طبيعي ولست أؤمن بالأنظمة المطلقة.. إنني أحب الحرية أكثر من أي شيء». وقد كتب تشيخوف مرة في رسالة إلى أحد أصدقائه يقول: «إن أعظم ما أقدسه هو (الإنسان)، وإن ما أبغي تحققه له هو الذكاء والصحة والموهبة والحب، والحرية المطلقة، والتحرر من الجبروت والبهتان». ولم يخدم الكاتبان أي حزب أو برنامج أو كنيسة، بل خدما (القيم البشرية) التي قد يخدمها كل شخص من وجهة نظره الخاصة. ولقد ظل تشيخوف بعيداً عن السياسة وحركات العمال، ولعل الإصلاح العملي الوحيد الذي اجتذب اهتمامه هو إصلاح السجون. ولم يكن يؤمن بإمكانية حدوث ثورة في روسيا في وقت قريب. كانت تساور بعض شخصياته أحلام يائسة تصوّر زمناً بعيداً تحل فيه العدالة والعقل والنزاهة. ولكنه مع ذلك كان يقدم إلينا في أقاصيص قليلة شخصيات تضيق ذرعاً بالإصلاح التدريجي. بل إنه أعلن مرة على لسان أحد شخصيات قصصه قائلاً: إذا كانت الحياة عديمة الرأفة برجعيتها فلابد أن نواجهها بصلابة مشابهة في النضال من أجل الحرية.

إن أدب تشيخوف يرسم صورة واضحة للمجتمع الروسي الذي كان السبيل فيه ممهداً للثورة؛ الخندق العميق الذي يفصل بين الطبقة البرجوازية وطبقة الفلاحين بعبوديتها الذهنية، المثقفين التافهين، الفقر والجهل الشنيع الذي تتخبط فيه الجماهير في صبر واحتمال لا يصدقان! وكان تشيخوف يصر على كونه لم ينحز إلى جهة من الجهات، بل ظل المراقب المنصف، الشاهد الشريف على حالة مجتمعه، لكنه في الحقيقة انغمر عاطفياً في القضايا التي كان شاهداً فيها. لقد كره النفاق والوضاعة والعبودية والبلادة وأي شيء يفسد البهجة ويلوّث العلاقات والحياة الإنسانية النزيهة، وإن قصصه ومسرحياته لدليل ساطع على هذا. إن كل قصة من قصصه دعوة إلى الحب والرأفة والحنان. لقد قال أحد شخصيات قصصه: «لابد أن يقف وراء باب كل إنسان سعيد هانئ شخص يحمل مطرقة يذكّر فيها الرجل السعيد دائماً بقرعة من قرعات مطرقته أن هناك أناساً أشقياء». والحق أن تشيخوف كان هو ذلك الشخص الذي يحمل المطرقة، والذي يذكّر السعداء بما تعج به الحياة من بؤس وخيبة وعذاب.

وقال الناقد روبرت لينسكوت: ذكر أنطون تشيخوف في إحدى رسائله: «إن هدف القصة هو الحقيقة المطلقة الشريفة». وقد حقق هدفه هذا في قصصه التي جعلته قمة بين كتّاب القصة القصيرة. لم يكن يغري قرّاءه بنهايات خداعة للقصة، ذات ألاعيب كثير الإعجاب، بل كان يفضل أن يحدث تأثيره في القارئ بالكشف عن مظاهر جديدة في الحياة في ظروف طبيعية مألوفة ولدى أشخاص اعتياديين. لقد فهم مواطنيه فهماً عميقاً حتى أصبحت أية إشارة تبدر منهم في قصصه شيئاً مميزاً لهم وشيئاً يضيف إلينا معلومات جديدة عنهم. لذلك فهو يعرضهم أمام القارئ بأقل عبارات ممكنة متجنباً الأوصاف المطولة والعظات، وبطريقة تضطرنا إلى قبول تصرفاتهم على أنها لا مناص منها.

وقد كان تشيخوف ذا مقدرة فائقة في حمل الحياة على محملها الخاص، فلم يستطع الفقر الذي قاساه في أيام صباه وأوائل شبابه أن يسحق روح المرح فيه، ولا استطاع ذلك صراعه الطويل الفاشل مع مرض السل. ولم يفسده النجاح، وظل يكافح دائماً ضد البلادة، ضد القسوة، ضد الرجعية العمياء. وكافح في ظل مرض لا يشفى بدون أن يفقد رغبته في الحياة وبدون أن تصبح لهجته قاسية مرة. ومع أنه ظل بعيداً عن السياسة إلا أنه كان ذا ضمير اجتماعي عملي حاد. فبينما كان الآخرون يتكلمون فقط، كان هو يعمل بصمت. وقد سافر وحيداً عبر سيبريا إلى سخالين، قبل إنشاء الخط السيبيري، ليحقق في حالة المحكومين بالأشغال الشاقة في تلك المستعمرة. وعندما رفضت الحكومة قبول مكسيم غوركي عضواً في الأكاديمية العلمية في بطرسبورغ استقال من عضويتها احتجاجاً على هذا الإجحاف بحق الكاتب الكبير، مع أنه كان معتزاً بتلك العضوية. وحينما كان الفلاحون يموتون بالكوليرا ترك الكتابة جانباً ليخدم الناس عن طريق الطب. إن هذه النزاهة العميقة جليّة في أدبه.

وقال الناقد برنار جلبرت غيرني: إن تشيخوف لم يبلغ بالقصة الروسية فقط درجة الكمال الفني، بل قدم إلى العالم أجمع الشكل الحقيقي الذي ينبغي أن تكتب به القصة، والواقع أن حوالي ٩٥٪ من قصصه هي الكمال الفني بمعناه.

أما كونه كاتباً مسرحياً فيعتبر خالق الدراما المتفردة (المسرحية الخارجة على قواعد المسرح). وعوضاً عن أن يوجه اهتمامه إلى (الخطة) و(شقشقة اللسان) كما يفعل كتّاب المسرح، فإنه أحل محلهما في الأهمية (الجو) و(الأسلوب)، وإن الحقائق الموضوعية لتتحول في قلمه إلى أغاني عاطفية. ولقد وصفت مسرحية (بستان الكرز) بأنها أعظم مسرحية ظهرت منذ عهد شكسبير، وأن مسرحية (الشقيقات الثلاث) أعظم مسرحية ظهرت إلى الوجود حتى الآن.

وقد كان تشيخوف نفسه يصرح بأن مسرحياته ليست سوى كوميديات خفيفة! ولكن أحداً من النقاد والكتاب لم يتفق معه على هذا الرأي أبداً.

أما عن الحزن الذي يتخلل قصصه ومسرحياته، فقد كتب تشيخوف في مكان ما بأن الكآبة للكاتب الروسي كالبطاطس المتواضعة بين يدي الطباخ الفرنسي البارع، فهو يستطيع أن يطبخها في مائتي طريقة مختلفة. والواقع أن الكتابة كانت أسهل عليه من أي عمل قياسا إلى أي كاتب عبقري آخر.

إن المميزات الرئيسية لموهبته الفذة في فن القصة هي التحليل الداخلي وهو أكثر رأفة وطبيعية وأملاً من تحليل ديستويفسكي، والملاحظة الدقيقة، والإشراق، والرقة، والفكاهة العذبة، والرأفة، والفهم العميق، والتهكم الخفيف، والريبة المحركة للعاطفة التي تقرب من الحزن. ولقد كان مثل تشيخوف الأعلى مجتمعاً صحياً مثقفاً، ليس لروسيا فقط، بل للإنسانية جمعاء.

وقالت الناقدة إيفا لاجين: «من المؤكد أن تشيخوف فهم الناس -الناس الاعتياديين- كما لم يفهمهم أي كاتب آخر في الأدب الحديث. ولقد كان موهوباً بمقدرة إلهية لرؤية أخطائهم والابتسام لها، وتقدير أفراحهم ومشاركتهم بها، وتلمس أحزانهم ونذر دمعة من أجلها. ورأي برقته وحنانه المتناهي أن الإنسان ليس رديئاً ولا طيباً، ليس سعيداً ولا شقياً، ليس قوياً ولا ضعيفاً، بل خليط من كل هذه الصفات في آن واحد. ولقد صيغت مسرحياته من فهم عميق للحياة، فهم درامي وفكه لحقيقة الحياة.

ليس ثمة شيء في مسرحياته قد رتّب من أجل المسرح، ومع ذلك فتكنيكه وبراعته تحيّر المشتغلين بشؤون المسرح. حاول أن تحذف مقطعاً من إحدى مسرحيات تشيخوف، وإذا كنت حساساً تجاه العمل المسرحي وجدت ذلك مستحيلاً.

إن مسرحيات تشيخوف وإن كتبت بلا ريب لتمثل إلا أنها من أصعب المسرحيات. فلكي تعبر عما في شخصياتها من صدق لابد أن يتوفر فيك الصدق، فلا يمكنك أن تكذب في مسرحيات تشيخوف، ليس هناك من مفر، لا يمكنك أن تعبر عن بساطة جوهرية بالخدع والألاعيب المسرحية. ولهذا يبدو لي أن فرصة النجاح في تمثيل مسرحيات تشيخوف أكثر توفراً لمجموعة من الممثلين يربطهم رباط متين من الرغبة المخلصة العميقة في القيام بتمثيل تلك المسرحية، من مجموعة لنجوم المسرح الكبار الذين يحاول كل منهم أن يظهر نفسه بمظهر المتفوق. وقد دعمت التجربة هذا الرأي، إذ اشتركت نخبة من كبار ممثلي المسرح في تقديم مسرحية (طير النورس) على مسرح بطرسبورغ الإمبراطوري، ففشلت المسرحية فشلاً ذريعاً. ثم قامت بتمثيلها مرة ثانية فرقة مسرح موسكو الفني، وكانت فرقة مبتدئة تتألف من أعضاء لم يصبحوا بعد من كبار الممثلين ولكنهم تميزوا بإدراك متجانس وحب مشترك لتلك المسرحية، فنجحت المسرحية نجاحاً باهراً وكانت نصراً للمؤلف وللفرقة.

إن أشد الأقوال افتراء على تشيخوف هو ذلك الحكم الذي يطلقه بعض النقاد على مسرحياته أنها كئيبة مثبطة متشائمة. ولنأخذ فرشنين في مسرحية (الشقيقات الثلاث). رجل شقي في حياته اليومية، يعذبه عدم احتفال الناس به وقصورهم تجاهه. ومع ذلك كانت صرخة حياته دائماً، «عندما يمر وقت أطول -قرنان أو ثلاثة قرون أخرى- فسيتأمل الناس نوع حياتنا في رعب وجزع، وسيبدو لهم كل شيء من أشياء اليوم فظيعا ومرهقاً وغريباً جداً وغير مريح. أوه، يالها من حياة رائعة تلك التي ستتحقق للناس.. يالها من حياة رائعة! أفي وسعكم أن تتصوروا فقط؟ ...سيأتي الوقت الذي يتغير فيه كل شيء ويصبح كما تشاؤونه، سيعيش الناس على طريقتكم، بل ستصبحون أنتم أيضاً طرازاً قديماً، سيولد الناس الذين يكونون أفضل منكم».

مقدمة كتاب تشيخوف الصادر في بغداد ١٢ / ١ / ١٩٥٤

تشيخوف مع افراد عائلته

إن مسرحيات تشيخوف وإن كتبت بلا ريب لتمثل إلا أنها من أصعب المسرحيات. فلكي تعبر عما في شخصياتها من صدق لابد أن يتوفر فيك الصدق، فلا يمكنك أن تكذب في مسرحيات تشيخوف، ليس هناك من مفر، لا يمكنك أن تعبر عن بساطة جوهرية بالخدع والألاعيب المسرحية. ولهذا يبدو لي أن فرصة النجاح في تمثيل مسرحيات تشيخوف أكثر توفراً لمجموعة من الممثلين يربطهم رباط متين من الرغبة المخلصة العميقة في القيام بتمثيل تلك المسرحية، من مجموعة لنجوم المسرح الكبار الذين يحاول كل منهم أن يظهر نفسه بمظهر المتفوق.

مائة وخمسون عاما على ميلاده

تشيخوف الطيب الذي ادخل الدفء الى القلوب!

د.جليل العطية

زائر قبر تولستوي لايسعه الا ان يفكر في احترامه، فلقد اوصى مبدع – الحرب والسلم – الا يضعوا على قبره تمثالا او شاهدا يحمل اسمه ، اما انطون تشيخوف (١٨٦٠– ١٩٠٤) فقد كان اكثر تواضعا، فلم ترد هذه الفكرة في ذهنه، ذلك لان التواضع كان نابعا من اعماقه، فهو لم يشعر بانه استاذ أو رائد.. بل انه لم يعرف ماذا يعني الاحساس بالتفوق، عرف تشيخوف الشهرة وهو في قيد الحياة، وتقول احصاءات حديثة انه تم طبع نحو سبعين مليون نسخة من نتاجاته في الاتحاد السوفيتي فقط.

ولا تزال مسرحيات تشيخوف تعرض حتى اليوم في مسارح موسكو وباريس ولندن ونيويوك ، وتزدحم رفوف المكتبات باثاره بلغات عدة، لقد طاف هذا النورس كل بحار الدنيا ومحيطاتها ، تشيخوف الطيب، هز العالم بكتاباته التي اسماها (صغيرة) وادخل الدفء الى قلوب الملايين من قرائه، فما هو حيويته وحداثته وقربه من الناس، برغم اختلافهم في الافكار والاحاسيس وظروف الحياة؟

السر انه صور عالمه الذي رآه بشكل مدهش، هذا العالم قد لايبدو لنا الان جذابا او بطوليا، ولكن الناس الذين صورهم ، ما زالوا قريبين منا، ومفهومين..كيف تم ذلك؟ العبقرية ربما! كان تشيخوف مرتبطا بعصره حتى النخاع، فقد كان ضد الافتعال وبقي على ارضه حتى في حلمه، وصور معاصريه بصدق، كاشفا فيهم تلك الاشياء التي نفهما نحن ايضا.

لم يكتب تشيخوف مقالات في الفن ونادرا ما كان يتكلم عن نتاجه الفني.

لقد كان يعرف كيف يكتب، ولكنه لم يقدم نظريته في علم الكتابة واشار الى ذلك في احدى رسائله، عندما يكلمونني عن الروح الفنية واللافنية، عن النزعات والاتجاهات والواقعية وما شاكل ذلك، فاني ارتبك واتخبط وتكون اجاباتي تافهة لا تستحق حتى قرشا نحاسيا، اني اقسم كل النتاجات الى قسمين، هذه التي تعجبني وتلك التي لا تعجبني ولا يوجد عندي مقياس اخر، اما اذا سألوني لماذا يعجبك شكسبير ولايعجبك زلوترافرانسكي فاني لن استطيع الاجابة، ربما وبمرور الوقت ساصبح اكثر واكتسب خبرة، وعندئذ ساستطيع الاجابة، اما الان فان كل هذه الاحاديث تتعبني، وتبدو لي استمرار لتلك النقاشات التي شغل الناس بها انفسهم في القرون الوسطى.

كان تشيخوف يرسم ابطاله كلهم من الداخل الطيبين والاشرار، الاذكياء والاغبياء، المهمين والثانويين، وبعض الاحيان كان الابطال يتحدثون هم انفسهم (حكاية مملة، البيت ذو الجناح العلوي، قصة انسان مجهول..الخ) وبعض النتاجات الاخرى.

ويمنح هذا الاسلوب صدقا اكبر لافكار واحاسيس تلك الشخصيات، وهناك مجموعة من الابطال الذين يكتشفهم القارئ عبر عيون الاخرين ولكن حتى هؤلاء الذين يصفون انفسهم بانفسهم كما في (حكاية مملة) او (قصة انسان مجهول) حتى هؤلاء سيطروا على قلوب القراء..في قصة (كان روتشيلد) تمرض زوجة الحانوتي ياكوف .

فيقيس جسدها ليعمل التابوت، وبعد وفاة الزوجة يجلس ياكوف عند النهر متألماً ، لقد كان في حيرة من امره، اذ كيف حدث هذا بحيث انه خلال اربعين او خمسين عاما، من عمره لم يذهب الى النهرن ولا لمرة واحدة وحتى لو انه فعل ذلك، فان النهر لم يسترع انتباهه، انه نهر كبير.. ويمكن حتى اصطياد الاسماك فيه، ثم بيعها للتجار والموظفين واصحاب المطاعم في محطات القطار، ووضع النقود في البنك، لماذا كان ياكوف يتخاصم مع الاخرين ويشتمهم طوال حياته، ويلوح بيديه مهددا ، ويهين زوجته؟ لماذا يعرقل الناس هكذا بعضهم بعضا في الحياة ؟اية خسائر من جراء هذا؟ خسائر مخيفة! ان اعمال ياكوف ليست انسانية ، ولكن يوجد في اعماقه برغم هذا انسان حي انه يعزف على الكمان بحزن لدرجة يبكي فيها حتى ذلك الانسان الذي كان مستاء منه لكن توجد هنا كلمة "خسائر" هذه الكلمة ترسم للقارئ اطارا واقعيا لنفسية ياكوف ومعاناته ، وهذا الاطار يهز القارئ.

يعتبر النقاد ربيع ١٨٨٦ نقطة الانطلاق لابداع تشيخوف ففي هذا الوقت تسلم رسالة غير متوقعة من (غريغورفيتش –الكاتب المعروف –يشجع فيها الكاتب الشاب، بعد هذه الرسالة تحول انتشا شيخوخيته – من الكتابة في الصحف الهزلية المختلفة الى الكتاب انطون تشيخوف، غير انه وفي هذه السنة بالذات كتب قصته القصيرة الرائعة (كابة) وخلاصتها ان الحوذي ايون، مات ابنه، وحاول ان يجد من يخفف عنه حزنه من راكبي عربته غير ان احدا لم يقبل ان يستمع الى الحوذي –واخيراً توجه الى حصان عربته يروي له حزناً ، كيف استطاع تشيخوف ان يتقمص شخصية ايون العجوز، لقد احب تشيخوف ابطاله حتى الجنون، كان يردد باستمرار انتفعوا بالحياة فهي قصيرة جدا، انها دعوة تظل قائمة، ويقول لنا تشيخوف: كافحوا الرتابة ، قاوموا الحياة المملة والروتينية، والا حل اليوم المحتوم الذي تسمع فيه وقع الفؤوس في بستان كرزك، اليوم الذي يتوجب عليك فيه ان تدفع ثمن ضعفك وتهاونك.

يقول ايليا اهرنبورغ: كل ابطال تشيخوف بشكل عام هم ليسوا نسخة معكوسة لاناس موجودين فعلا في الواقع. وانما هم مزيج من المعاناة الذاتية والتجربة والخيال الخصب، ومن الممكن ايجاد ارتباط مباشر بين تشيخوف وكثير من ابطاله، ان الفنانيين لايشبهون بعضهم بعضا، انهم مختلفون بشكل، ولكن من الصعب ان نتصور نتاجا فنيا لم يضع فيه الفنان جزءا من حياته او احاسيسه يؤكد بعض النقاد بأن تعبير تشيخوف في التفصيلات هو ضرورة تمليها القصص القصيرة جدا، لانه لايتناسب وينسجم مع عصره كما كانت تبدو له. ان الايجاز في الكتابة كان بالنسبة له مرتبطا باحساسه بالعالم، وبرغبته ان يبين ويعكس العالم الواقعي، وليس العالم النسبي، يعتقد (بونين) ان بطل مسرحيات تشيخوف الرئيس هو الابدية، فان الاحساس بالزمن الذي يبتعد هاربا يكاد يكون عند هذا الكاتب ماديا، افيدوا من الحياة، هكذا كان يصرح ، تمتعوا بايامكم هكذا كان ينصح الناس.

استطاع تشيخوف دائما وهو استاذ القصة القصيرة الذي لايبارى ، ان يتجاوز موضوعه، ونجح في تقديم قصص فكاهية عبرت عن افكار ذات عمق مذهل، ومنح ابطاله حضورا مدهشا ، كان فلوبير يحلم بأن يكتب رواية لايحدث فيها أي شيء، ولكنه لم يكتب هذه الرواية ..تشيخوف كان يؤكد دائما بأنه يحب الكتابة ببساطة عن الاشياء البسيطة، تشيخوف الذي رفض كل القوانين، كان ينتقل بلحظة خاطفة من الضحك الى الحزن، من الطبيعة الى الشعر، وفي هذا كما في اشياء اخرى كثيرة، كان هو المؤلف الاول لعصر جديد معقد.

عاش انطون تشيخوف اربعة واربعين عاما فقط ولم يمتد عمره اكثر، وكان في السنوات الاخيرة مريضا جدا ومحكوما عليه بالحياة في عزلة في مدينة يالطا، وبالرغم من هذا العمر القصير نسبيا، فقد استطاع ان يغمر قلوب الملايين ولم يتأملها فحسب، بل انه تدخل فيها.

كان تشيخوف يرسم ابطاله كلهم من الداخل الطيبين والاشرار، الاذكياء والاغبياء، المهمين والثانويين، وبعض الاحيان كان الابطال يتحدثون هم انفسهم (حكاية مملة، البيت ذو الجناح العلوي، قصة انسان مجهول..الخ) وبعض النتاجات الاخرى.
ويمنح هذا الاسلوب صدقا اكبر لافكار واحاسيس تلك الشخصيات، وهناك مجموعة من الابطال الذين يكتشفهم القارئ عبر عيون الاخرين ولكن حتى هؤلاء الذين يصفون انفسهم بانفسهم كما في (حكاية مملة) او (قصة انسان مجهول) حتى هؤلاء سيطروا على قلوب القراء..في قصة (كان روتشيلد) تمرض زوجة الحانوتي ياكوف.

انطون تشيخوف:

لم امتلك طفولة

اسهم المرض الى حد كبير في تشكيل تلك النظرة السوداوية التي لم يستطع الفكاك منها برغم انها لم تؤثر بحدة على عواطفه ورقته.. وهو خلافا للكثير من العظام كان يتمتع بشخصية ساحرة متواضعة والصفة الاخيرة هي السبب وراء عزوفه عن اظهار اهميته او التباهي بمكانته اذ لم يكن هناك قط من هو اقل كرها للعب دور الرجل العظيم والتي اسهمت ايضا في ايثاره استخدام التكنيك الادبي الذي يسمح للقارئ باستنتاج ما يريد واصراره على ان عمله كمؤلف ينحصر في "عرض المشاكل وليس حلها"

×كان والد "انطون بافلوفيتش تشيخوف بقالا خائبا في تاجانروغ وهو ميناء يقع على بحر ازوف، في الجزء الجنوبي من روسيا فقد في منتصف القرن التاسع عشر كل مظهر للرفاهية والانتعاش يمكن ان يكون قد تمتع به من قبل على انه كان طاغية في بيته، حيث دأب على ضرب اطفاله يوميا بلا مسوغ برغم تمسكه بمظاهر الدين، اذ كان يقضي جل وقته في الصلاة والقاء المواعظ.. وحالما يشتد عود اطفاله الصبية لا يتوانى عن تشغيلهم في دكانه الصغير البارد وفي ايام الاحاد كان يجبرهم على الوقوف لساعات في الكنيسة..

وبعد اعوام كتب"انطون": "عندما كنت طفلا لم امتلك طفولة، وبرغم ذلك لم يكن الاب ليفتقر للنبضات الرقيقة او القدرات، (فقد علم تفسه العزف على الكمان مثلا) حتى ان ابنه الشهير تمكن من التفكير فيه فيما بعد بقدر ضئيل من الكراهية على نحو يثير الاستغراب ملكة السخرية كانت التعويض والمصدر المخفف من قسوة التجربة المريرة، ونبع الاتزان الواضح في عمله، طبيبا او مؤلفا، وقد تواءم الطب مع مزاجه العاطفي واحتياجه لمهنة تدر عليه ما يعيل به العائلة بعد افلاس والده وتحوله الى الخمر، ولم يتخل "تشيخوف" قط عن هذه المسؤولية بل صارت احد اسباب ارجائه تأسيس عائلته الخاصة.. والسبب المنطقي الاخر هو ميله الشديد للكتابة..وحول هذه النقطة يذكر مؤلف السيرة الجديدة التي تحمل اسم "تشيخوف" عنوانا لها، "هذي ترويا" من تكون المرأة بالنسبة له، بغض النظر عن مدى تعلقه بها، عندما يشكل القلم والورقة محور حياته"؟.

والسيدة هذه تشبه الى حد كبير مسرحية بقلم"تشيخوف" فالجو العام هو الجو الريفي الروسي والشخوص خليط مذهل من الحالمين والمفركين الضجرين.. والاجواء طنانة متخمة بعواطف مكبوتة وطوفان عارم من التعاطف وحفلات الشاي، وخلافا لحيوات واعمال بوشيكين وغوغول وتولستوي وديستوفسكي التي سبق للمؤلف وان عالجها سابقا فأن تشيخوف ينتمي للقرن العشرين، عصر الاصطراع الروحي والريبة السوداوية اذ طغت تلك النبضات على مئات من قصصه ومسرحياته التي تعد قمما لروعتها (النورس والخال فانيا والشقيقات الثلاث وبستان الكرز) وعلى وجه الخصوص رسائله: كتب الى زوجته في عام ١٩٠٤ قبيل وفاته بسبب مرض التدرن الرئوي، تسألينني ماهي الحياة...انه سؤال يشبه سؤال ماهي الجزرة؟.. الجزرة هي الجزرة وليس هناك من مزيد لمعرفته".

ثمة تردد واضح لدى تشيخوف في لعب دور الحكيم الروسي او الصوفي السلافي بعد ان احتكر كل من تولستوي وديستوفسكي ذلك الدور، علاوة على الاهانة التي استشعرها جراء تصريحات اولئك الذين ترفعوا عن خوض المعركة فقد قال مرة (ومؤلف الحرب والسلام، حاضر في ذهنه): كان للعقلاء العظام استبداديون يفتقرون للكياسة والحس المرهف مثل الجنرالات لانهم من حصانتهم" ..لذا راح يمجد "الفلاح الروسي المقدس"..

كتب "موزارت" مرة يقول انه يؤلف الموسيقى بيسر كما تتبول البقرة، "تشيخوف" كان اكثر لطفا في وصف سهولة انسياب ابداعه اذ قال: "اكتب بصفاء وهدوء وكأني التهم البليني (ضرب من السمك"...وفي مكان آخر ذكر مسجل السيرة ان موضوعه التقط مرة منفضة سجائر واعلن استعداده لتسليم قصة تدور حولها في اليوم التالي.

عندما تخترق الاخوات "اولغا" و"ماشيا" و"ايرينا" (في الشقيقات الثلاث) شوقا لموسكو لم تكن تأوهاتهن سوى صدى للشاب، "تشيخوف" الذي سحرته المدينة بجبروتها بينما هو يدرس الطب في مدرستها حيث لا احد من رفاقه قد خطر في ذهنه ان يربط بينه وبين" انتوشا تشيكونت، وهو الاسم المستعار الذي استخدمه عند كتابته قصصا هزلية...ولم يكتشف احد الامر حتى عام ١٨٨٧ عند عرض مسرحيته، ايفانون ، والتي انبرى النقاد لتوجيه النقد اللاذع لها فقد كتب عنها احدهم: "قطعة تفاهة تطفح بالثرثرة الوقحة واللااخلاقية والبشاعة"...ولكن ما لبث النقد ان تغير في عام ١٨٨٨ عندما نشر قصة السهب، ووضعه النقاد في مصاف "تولستوي" و"غوغول" وراحوا يعقدون المقارنات بينه وبين اولئك الروائيين العظام.

على ان الشهرة قد تستهوي النقاد ولكن ليس تشيخوف الذي لم يصبح يوما اسيرها فقد كتب"الناس الذين اخشى هم اولئك المنقبين بين السطور عن النزعات السياسية والفكرية...

لست ليبراليا ولا محافظا او مصلحا او راهبا او حياديا.. ارغب ان اكون فنانا حرا ولاشيء سوى ذلك..واني اسف لان الله لم يمنحني القوة لاكون كذلك..

يفصح هذا القول عن اكثر من مجرد حقيقة مجازية فقد عانى "تشيخوف" من جملة امراض مزمنة في هذا فقد ظهرت عليه اعراض التدرن عندما تخرج من الكلية الطبية..

واسهم المرض الى حد كبير في تشكيل تلك النظرة السوداوية التي لم يستطع الفكاك منها برغم انها لم تؤثر بحدة على عواطفه ورقته.. وهو خلافا للكثير من العظام كان يتمتع بشخصية ساحرة عطوفه متواضعة والصفة الاخيرة هي السبب وراء عزوفه عن اظهار اهميته او التباهي بمكانته اذ لم يكن هناك قط من هو اقل كرها للعب دور الرجل العظيم والتي اسهمت ايضا في ايثاره استخدام التكنيك الادبي الذي يسمح للقارئ باستنتاج ما يريد واصراره على ان عمله كمؤلف ينحصر في "عرض المشاكل وليس حلها" ولكن ما من اعجاز ينجز الا بتوافر قدر ولو بسيط من القسوة، لذا جمع ترويا شهادات من بامكانه ان يثبت سلبية "تشيخوف" الخفية وقدرته على عزل ذاته من متطلبات العاطفة حتى ان "مكسيم غوركي" كتب مرة يقول له: "انت ابرد من الشيطان من الناس".

اما علاقته بالنساء فقد اتسمت بالانفصال ولكن دون افتقار للرقة فمثلا استطاع بلباقة استبقاء، ليديا افيلوفا، على علاقة طيبة به وهي الملحاح حد الهستيريا وعندما تزوج اخيرا اختار "اولغا" اشهر ممثلات موسكو، ومن سوء الحظ ان عملها تطلب منها البقاء لفترات طويلة في المدينة بينما ابقاه مرضه في يالطا.

واجه "ترويا" تحديا كبيرا في مسيرته هذه برغم انه تبع ذات النهج في سيره السابقة عن اساطين الادب الروسي، لذا اعاد بناء حياة تشيخوف بروحية روائي من دون ان يغمس في التأملات أو السعي وراء شطحات الخيال والعاطفة...فما من شك ان انتصار تشيخوف على مصاعب حياته المبكرة يشكل مادة درامية صالحة الا ان ماتلا ذلك بخلاف حيوات مواضعيه السابقين ، يلقي بظلال قاتمة على القصة.

توفي تشيخوف وهو في الرابعة والاربعين بينما كان يشرب الشمبانيا والى جانب فراشه جلست اولغا وران الصمت على الغرفة الا من صوت رفرفة اجنحة فراشة سوداء..وبينما يبرد جسد الرجل الشهير تندفع الفلينة من زجاجة النبيذ لتحدث جلبة احتجاجا على ذلك السكون الابدي...

ترجمة/ آمنة عبد الوهاب
الجمهورية ١٢/٥/ ١٩٨٦

بان نتاجات تشيخوف كلها تبدو لي وكأنها رواية واحدة، واردت ان اضيف رأسا، او ملحمة شعرية واحدة، ولكنني ترددت، اذ سيقولون: بالطبع، توجد كثير من الشاعرية في مسرحياته، ولكن هل يمكن -بدون ان نضحك- ان ننسب الى الشعر قصصاً مثل "حكاية مملة" ، "ردهة رقم ٦"أو حتى "انسان داخل محفظة"؟ وأول المعترضين سيكون انطون بافلوفيتش نفسه، فعندما تجرأ بونين ان يتكلم معه عن الشعر، ياسيدي العزيز، هم هؤلاء الذين يستخدمون كلمات مثل "البعد الفضي" او "اكورد" أو "الى المعركة الى المعركة في النضال ضد العتمة! لقد كان تشيخوف يسخر ولهذا فان بعض النقاد الان يمكن ان يصابوا بالحيرة ، اذ لماذا اذن اطلق على تلك القصص الواقعية جدا اسم: الشعر،

تشيخوف.. قصص ومسرحيات شكلت ملحمة انسانية

ايليا ايرنبورغ
ترجمة/ د. ضياء نافع

هذه القصص المنتزعة من صميم الحياة الروسية في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي؟ لقد اسمي غوغول رواية الارواح الميتة" – قصيدة ملحمية، ولم يتعجب احد: اولا لأنهم تعلموا ذلك في المدرسة، وثانيا لان الجميع يذكرون تلك الكلمات عن العربة الروسية وبقية المقاطع الوجدانية والعاطفية، وكذلك فأن ابطال تلك الرواية محاطون بتلك الروح الشاعرية ، كما هو حال العربة الروسية ، شعر تشيخوف مختلف: انه في الموسيقى الكامنة (لم اتعجب عندما قارن فرنسوا مورياك تشيخوف بموتسارت)، ان "النورس" و"الخال فانيا" و"الشقيقات الثلاث" ليست مسرحيات كوميدية كما كان يظن انطون بافلوفيتش، وليست مسرحيات دراماتيكية كما تقبلها – ولا زال يتقبلها – كثير من المشاهدرين ، وانما هي نتاجات شاعرية موسيقية بشكل غير اعتيادي، حتى التوقفات تنبض خلافاً لكل القوانين المسرحية، وحوار الحوذي مع الحصان في قصة "كآبة" الا يعتبر نموذجاً شاعريا فذا؟ ورسالة الى الجد في القرية ، والثلج الذي تساقط لتوه في قصة "التوبة" وقراءة الجمل المعلقة من النهاية الى البداية، من قبل البطل الحزين في "حكاية مملة" ؟والمسألة ، مع ذلك ليست في تلك المقاطع التي تعتبر شاعرية نتيجة صياغتها اللغويةن اذ ان تشيخوف كان يتخلص بمرور – السنين – من اللغة المنمقة ويحتفظ بالبناء الشاعري والايقاع الداخلي في لغته الفنية، مؤكدا بأنه يتوجه نحو ابطاله كالكيميائي وقال بهذا الصدد: ان الانسان البسيط ينظر الى القمر ويتأثر للغاية، كما لو انه امام شيء ما مجهول ومخيف ويقع خارج ادراكه، اما العالم المتخصص بعلم الفلك فانه ينظر الى القمر بعيون مختلفة تماماً.." ان التوجه العقلاني والعلمي نحو المعاناة الانسانية لم يعرقل تشيخوف الشاعر، بل بالعكس تماماً، ساعده في شاعريته اذ انعدمت في شعره الاشياء المفتعلة قال عدة مرات بأن التعرف بالعلوم الطبية ساعده على فهم الابطال بسهولة ، ومن المدهش حقا، بان هذا الانسان الذكي استطاع ان يفهم ويعرض روعة بساطة الانسان وعفويته افضل من أي اديب رومانتيكي، في قصة "في الهاوية" تشاهد البطلة بشكل غير متوقع عربة نقل واثنين من كبار السن، وتسألهما:

-انتما قديسان؟

-كلا، نحن من منطقة فيرسانوفا".

لماذا تبدو هذه السطور رائعة هكذا ؟ من المحتمل لأن العجوز لم يندهش ، وانما اجاب ببساطة: نحن من منطقة فيرسانوفا...

هذه مثلا قصة السيدة صاحبة الكلب الصغير، غوروف المتزوج والبالغ من العمر اربعين عاما، والذي يتوجه نحو النساء بشكل طائش ونزق، يتعرف في مدينة يالطا على سيدة ، ويظن بأن هذا اللقاء سيكون عابرا، ولكن "آنا سيرغيفنا وهو احبا بعضهما بعضا..

كزوج وزوجة ، كأصدقاء رقيقين، بان القدر نفسه قد شاء ان يكون كل واحد منهما للاخر، وكان من غير المفهوم : لماذا كان هو متزوجاً وهي متزوجة، لقد كانا بالضبط كطيرين قبضوا عليهما واجبروهما ان يعيشا في قفصين منفصلين ، لقد سامحا بعضهما بعضا، ولم تعد موجودة تلك الاشياء التي يخجلان منها في ماضيهما وحاضرهما، وكانا يشعران بان حبهما هذا قد غيرهما.."

ولنتكلم عن قصة اخرى، ولتكن، مثلا "حادثة من التطبيق" حيث يرى الطبيب مريضته ليزا ليليكوفا: "...كبيرة طويلة، غير جميلة تشبه والدتها، ذات عيون صغيرة، والجزء الاسفل من وجهها واسع واكبر مما يجب، شعرها بدون تصفيف، وكانت مغطاة حتى الحنك لقد اثارت عند الطبيب احساسا، بأنها انسان تعس كسيح يثير الشفقة ، ولم يكن يصدق بانها الوريثة لهذه البنايات الضخمة" وفي هذه الاثناء جاءوا بالمصباح الى غرفة النوم. فضيقت المريضة عينيها وفجأة وضعت يديها على رأسها واخذت تجهش بالبكاء واختفى فجأة الاحساس بأنها انسانة كسيحة وغير جميلة، ولم يعد كورليوف يلاحظ العيون الصغيرة او الجزء الاسفل من الوجه.. لقد كان يرى تعبير الالم.. وبدت له هذه المرأة رشيقة، ذات انوثة وبسيطة وكان يريد ان يمنحها الهدوء ليس بواسطة الادوية او النصائح وانما بالكلمة البسيطة المليئة بالحنان".

انني لا احب الشاعرية في النثر، ولا الرغبة في تقريب القصة من القصائد ويبدو لي بان "اغنية الحب المنتصر" وقصائد في النثر، لتورغينيف ليست ناجحة تماماً، فالشعر يحيا في نتاجات اخرى لتورغينيف، في "الحب الاول" او في "اسيا" ومن الصعب علي ان افهم كيف استطاع مؤلف "مدام بوفاري" ان يكتب "سالامبو" ان شعر تشيخوف لايشبه "الشاعرية" الخارجية، انه يكمن في السمو وفي رومانسية الشخصيات الفنية وليس في المناظر الطبيعية الخلابة أو في مجموعة الكلمات المتأنقة ، يكمن في العمق الوجداني في البساطة وفي الجمال الروحي الذي يتمتع به الكاتب.

لقد كان تشيخوف ثوريا في النثر، ولم يستمر باتباع اساليب الادباء العظام الذين سبقوه، فالمناظر الطبيعية في روايات تورغنيف كانت تعتبر قمة المهارة الفنية، ولكنه قال عنها ما يلي: "وصف الطبيعة عند تورغينيف جيد، لكني اشعر باننا اخذنا نبتعد عن مثل هذا الوصف، وانه من الضروري الان ان يجد شيئا ما اخر..."

لقد فهم تولستوي جرأة الكاتب الشاب وقال: "لايمكن مقارنة تشيخوف كفنان مع الادباء الروس السابقين له، مع تورغينيف ودستوفيسكي او معي، عند تشيخوف يوجد نمط خاص به كما عند الانطباعيين ، عندما تنظر الى نتاجاته تعتقد بان هذا الانسان يلطخ الالوان بدون أي تمييز، ويستخدم أي لون يقع تحت يديه بدون أي علاقة بين الالوان ، ولكن ما ان تبتعد لمسافة قليلة وتنظر من جديد، فستجد انطباعا متكاملاً بشكل عام، وتتكون امامك صورة للطبيعة ساطعة ولاتنسى ، وهناك دليل لا يطاله الشك ابدا يثبت بان تشيخوف فنان اصيل وهو انه من الممكن ان نقرأ نتاجاته ونعيد قراءتها عدة مرات.."

تولستوي وهو واحد من اكبر فناني العالم تخلى عن الفن في شيخوخته، وقد اغضبت تشيخوف هذه الافكار وقال: "ان القول بأن الفن قد هرم وانه دخل في طريق مسدود وانه ليس بذاك الذي يجب ان يكون والى اخر هذه الاحاديث، انما تشبه

لقد فهم تولستوي جرأة الكاتب الشاب وقال: "لايمكن مقارنة تشيخوف كفنان مع الادباء الروس السابقين له، مع تورغينيف ودستوفيسكي او معي، عند تشيخوف يوجد نمط خاص به كما عند الانطباعيين ، عندما تنظر الى نتاجاته تعتقد بان هذا الانسان يلطخ الالوان بدون أي تمييز، ويستخدم أي لون يقع تحت يديه بدون أي علاقة بين الالوان ، ولكن ما ان تبتعد لمسافة قليلة وتنظر من جديد، فستجد انطباعا متكاملاً بشكل عام، وتتكون امامك صورة للطبيعة ساطعة ولاتنسى ، وهناك دليل لا يطاله الشك ابدا يثبت بان تشيخوف فنان اصيل وهو انه من الممكن ان نقرأ نتاجاته ونعيد قراءتها عدة مرات.."

بالضبط القول بان الرغبة في الطعام قد اصبحت شيئا باليا وانها انتهت او دخلت في طريق مسدود، ولكن مع هذا فأنه، من الضروري ان نأكل وان نستمر بتناول الطعام وبرغم ثرثرة الفلاسفة والشيوخ الغاضبين.

لقد رفض ليف نيكولايفتش تولستوي الفن، ولكنه بالوقت نفسه كان يحبه بعنف حتى اخر يوم من حياته، وكان يعيد ويكرر عن ظهر قلب قصائد توتشيف ويقرأ مرات عديدة وبصوت عال قصص تشيخوف التي احبها، لقد كان يرى بان تشيخوف ادار ظهره لقوانين علم جمال الماضي، وهذا الشيء لم يغضبه وانما افرحه.

ولكن لماذا تذكر تولستوي رسومات الانطباعيين عند الكلام عن نثر تشيخوف؟ ان هذه المقارنة تبدو للوهلة الاولى غير مفهومة، ومع ذلك فانه يوجد فيها منطق محدد وواضح.

مونيه، عندما كان شاباً، اكد لا صدقائه سيسليا ورينوار ما يلي: "لنهرب من هنا، هذه المدرسة ستدمرنا لا يوجد هنا الشيء الرئيس، الاخلاص.." وعندما رأى اميل زولا هؤلاء الرسامين الشباب قبل فترة طويلة من تسميتهم من قبل النقاد بـ "الانطباعيين" قال بأنهم يبدون تقبلاً واقعياً للعالم جنباً لجنب مع (حلويات) هؤلاء الذين يتبعون الاتجاه الاكاديمي.

قصص تشيخوف احدثت في نهاية الثمانينيات مثل هذا الانطباع لدى القارئ الروسي، اذ كان الكاتب ينظر الى العالم بعيون جديدة ويتحدث عن ذلك بشكل جديد، لقد كان يقول مثلاً: "....من الافضل الا تنهي الحديث من ان تنهيه وزيادة، وذلك لان... لأن ..لا ادري لماذا" هذا هو رفض للرسم الكامل والمفصل، للتقبل الجاف والخاضع للتخطيط المسبق، وهذا هو الذي يقرب تشيخوف الى الانطباعيين: انه قريب منهم في انفصاله عن الماضي، ولكن ليس في الاساليب الفنية بالطبع.

كما يحدث غالبا فان النقاد فرحوا بهذه التسمية وهكذا تحول تشيخوف ولفترة طويلة من الزمن الى انطباعي، ونجد في "الموسوعة الادبية" التي صدرت عام ١٩٣٠ ما يلي: "اخذت الانطباعية بالظهور كولادة جديدة للواقعية، كمرحلة ختامية في ديالكتيك تطور الواقعية على تربة انهيار وتفسخ الانتلجنسيا البرجوازية الصغيرة في عصر رجعية الثمانينيات.. ويعتبر تشيخوف مثالا لهذا" وكتب سوبوليف عام ١٩٣٤ يقول: "انطباعية تشيخوف تعبر عن نفسها بسطوع خاص في استخدامه للمقارنة والمجاز والاستعارة...".

بعد عشر سنوات اصبحت كلمة "الانطباعية" باطلة واختفت كلمات تولستوي من الكتب المكرسة للبحث في ابداع تشيخوف.

لم يسلك تشيخوف الطريق المعبد، برغم ان هذا الطريق كان واسعاً وممهداً بشكل جيد، وكان يشعر بفقدان التناسق وانعدامه بين الاشكال الفنية القديمة والمضمون الجديد، لقد املى الزمان ضرورة الايجاز والاختصار، ونحن على حق عندما نعتبر تشيخوف واحدا من اوائل فناني القرن العشرين، كان موباسان يطور ويحسن القصة القصيرة كنوع فني جديد..ولكن تقبل العالم لهذا النوع واسلوب الكتابة فيه بقيت تقليدية، اميل زولا وجد شيئا ما جديدا في التغيير السريع للخطط الكبيرة والمشاهد الجماهيرية في مونتاج الرواية، اما تشيخوف فقد كان جديدا في كل شيء. انه لم يكن يثبت شيئاً، حتى انه لم يكن يتحدث، بل كان يعرض الاشياء والظواهر وحسب. انه حرر القصة من البدايات المطولة ومن الخاتمة التوضيحية ومن الوصف التفصيلي لمظهر الابطال ومن حتمية عرض تاريخ حياتهم، "في رأيي عند الانتهاء من كتابة القصة، يجب ان نشطب بدايتها ونهايتها، اذ اننا هناك، نحن الادباء نكذب اكثر من أي مكان اخر..

ويجب ان نتكلم باختصار ما أمكننا ذلك، بمنتهى الاختصار...".

يؤكد بعض النقاد بان تعتبر تشيخوف في التفصيلات هو ضرورة تمليها القصص القصيرة جدا التي كان يكتبها، في رأي تشيخوف اختار شكل القصة القصيرة جدا لأنه يتناسب وينسجم مع النبرة العصرية كما كانت تبدو له، ان الايجاز في الكتابة كان بالنسبة له مرتبطا بأحساسه بالعالم، وبرغبته ان يبين ويعكس العالم الواقعي وليس العالم النسبي، لقد كتب الى مكسيم غوركي يقول: "... احذف النعوت والظروف ما امكنك ذلك، انها كثيرة عندك حتى ليضل فيها انتباه القارئ ويعتريه التعب ان المرء يفهمني عندما اكتب: "جلس الرجل على العشب" انه يفهم ذلك لانه جلي وواضح...وخلافاً لهذا، فاني اغدو غامضا وارهق الدماغ اذا ما كتبت: "على العشب الاخضر الذي وطأته اقدام المارة جلس رجل كبير، ضيق الصدر، ذو قامة معتدلة ولحية، جلس دون جلبة ملقيا على ما حوله نظرات فيها حياء وخوف...".

كان سوبوليف يعتبر بان خاصية تشيخوف تكمن في حبه للمقارنات والمجاز والاستعارة، ولكنني اظن بان العكس هو الصحيح، اذ انه كان يحاول ان يتحرر من الاكثار من المجاز والاستعارات وغيرها، التي كان يتميز بها كثير من مؤلفي القرن التاسع عشر، بل حتى في نتاجاته المبكرة حاول ان يستخدم اكثر المقارنات بساطة وحيوية، المقارنات المألوفة، فعند الكلام عن التماع البرق مثلاً كتب يقول: "كأن شخصاً ما قد اشعل في السماء عود ثقاب.." اما تورغينيف فقد وصف الرعد والبرق مستخدماً الجملة التالية: "... كجناحي طير يعاني سكرات الموت.." قال تشيخوف مرة بانه وجد افضل وصف للبحر في دفتر مدرسي: "كان البحر كبيرا" ان التواضع بالنسبة له لم يكن فقط مفهوماً اخلاقياً وانما قانوناً جمالياً ايضاً، وقد كتب الى غوركي في احدى رسائله يقول: "خصوصا عدم التحفظ هذا يشعر به المرء في وصفك للطبيعة، والذي نقطعه بالحوار، عندما اقرأ هذا الوصف فأني اشعر بانه يجب ان يكون اقصر ومتراصاً اكثر، ان التذكير الكثير بالنعيم والهمس والمخمل وغير ذلك يجعل هذا الوصف بلاغياً ورتيباً..".

لم يكن من الصعب على تشيخوف ان يرفض اسلوب تورغينيف الذي كان يبدو له عتيقا، اما فن دستويفسكي فلم يغره ابدا، اذ انه لم يكن يحب تلك الافكار التي يتعتبرونها صحيحة لأن قائلها فلان ولا التصنع، ولا الاشتباكات المتوترة في القصص، ولكن يوجد كاتب، كان يمكن لتشيخوف ان يقع تحت تأثيره ببساطة في احدى قصصه التي لم ينته منها وكانت بعنوان "الرسالة" نرى بأن بطل القصة

لقد سبح تشيخوف في نهر آمور، وسار متجولاً في شوارع روما، وحصد في حقول اوكرانيا، وتوغل في القرية الروسية النائية الصماء، وعندما كان يبقى لفترة طويلة في مكان واحد، فان الضجر يدب الى قلبه رأساً ويبدأ برسم الخطط: من الممكن ان اسافر الى استراليا او الى الارض الجديدة؟ لقد كتب في احد قصصه يقول: "...ليس الانسان وانما الجثة هي التي تحتاج الى ثلاثة امتار من الارض...الانسان لايحتاج الى ثلاثة امتار من الارض ولا الى قصر ريفي، وانما هو بحاجة الى كل الكرة الارضية، الى كل الطبيعة،

يقرأ كتابا لمؤلف لم يذكر اسمه ويقول عنه ما يلي: "يا لها من قوة! ان الشكل على ما يبدو غير لبق، ولكن تشعر في هذه اللالباقة بحرية واسعة وبفنان رهيب بلا حدود، في جملة واحدة تتكرر ثلاث مرات "الذي" ومرتين "كما يبدو" ان الجملة مصاغة بشكل سيئ، ليست بالريشة وانما "بالليفة" بالضبط، ولكن اية نافورة تنفجر من تحت هذه "الذي" واية فكرة مرنة ورشيقة وعميقة تكمن تحتها، واية حقيقة صارخة!"، من السهل ان تحدد النتاج الفني الذي كان يقرأه بطل قصة "الرسالة" انه ليف تولستوي بالطبع، لقد قال تشيخوف مرة لشوكين: "هل انتبهت الى لغة تولستوي؟ قياسات كبيرة، جمل متكدسة واحدة فوق الاخرى، لا تعتقد بان هذا كله جاء بالصدفة، وان هذا يعتبر نقصاً، هذا فن ويأتي بعد جهد جهيد.." ...لكن تشيخوف غير الواثق من نفسهن المتواضع اقصى ما يكون التواضع، والذي كان يعرف تولستوي شخصياً ويمجده، استطاع ان يتخلص من التقليد والمحاكاة وان يخلق ايقاعه الخاص وطريقته الخاصة بالكتابة.

كان فلوبير يحلم بان يكتب رواية لايحدث فيها أي شيء، ولكنه لم يكتب مثل هذه الرواية...تشيخوف كان يؤكد دائما بأنه يحب الكتابة ببساطة عن الاشياء البسيطة، مثلا كيف تزوج بيوتر سيميونوفيتش من ماريا ايفانوفنا ، وكان الادباء يقولون مازحين: انطون بافلوفيتش في اثناء تصحيحه لقصته، حذف منها كل شيء ولم يتبق في تلك القصة سوى ان شاباً وشابة كانا يحبان بعضهما بعضاً وتزوجا ثم عاشا بشقاء، وقد اجاب تشيخوف على هذه النكتة قائلاً: ولكن اسمعوا ، ان الواقع هو هكذا فعلاً.

تولستوي الذي كان يقدر قصص تشيخوف حق قدرها، لم يتقبل مسرحه، وكان يعتبره كاتباً مسرحياً فاشلاً، وكان الكثيرون يؤيدون هذا الرأي.

في مسرحيات تشيخوف لم يكن هناك شيء مرتبط بالتصور الذي كان سائداً لفترة طويلة عن المسرح، اذ لاتوجد حوادث خارجية او داخلية، وانما صور حية مع اطلاقات – بعض الاحيان- في نهاية المسرحية، والاطلاقة تلك تعني نقطة فقط لاغير، يقول لوي بارو عن مسرح تشيخوف ما يلي: "كل دقيقة مليئة، ولكنها ليست مليئة بالحوار، وانما بالصمت وبالاحساس بالحياة".

تشيخوف الذي رفض كل القوانين كان ينتقل بلحظة خاطفة من الضحك الى الحزن، من الطبيعة الى الشعر، وفي هذا، كما في اشياء اخرى كثيرة، كان هو المؤلف الاول لعصر جديد معقد وصعب، مسرحية "النورس" اعتبروها ولا زالوا يعتبرونها محاكاة هجائية ضد اتباع الاتجاه الفني المنحط –الديكادانس، نينا زارايجنايا انشدت وسط ضجيج الجمهور وقهقهته: "ايها الناس والاسود والنسور والكروان والغزلان ذات القرون والوز والعناكب والاسماك الصامتة التي تعيش في الماء ونجوم البحر التي لايمكن النظر اليها بالعين – باختصار ياكل الاحياء، كل الاحياء ، كل الاحياء لقد انتهى الطريق الحزين... اني اتذكر كل شيء، كل شيء، كل شيء وكل حياة –اعانيها انا في داخلي من جديد"، لقد كان تريبلف شابا وبلا تجربة، ولكن ها هو ذا الكاتب المسرحي الناضج فنياً –ليس تريبليف وانما تشيخوف –ينهي مسرحيتين من مسرحياته بمنولوج وجداني، اولغا في "الشقيقات الثلاث" تصرخ: "سيمضي الزمان، وسنذهب نحن الى الابد، وسينسوننا، سينسون وجوهنا، أصواتنا ، وكم كان عددنا ، لكن معاناتنا ستتحول الى فرح لهؤلاء الذين سيحيون بعدنا، السعادة والسلام ستحلان على الارض، وسيتذكروننا بكلمة طيبة وسيباركون هؤلاء الذين يعيشون الان.." وبالطبع تشيخوف لم يكن ابداً تشيخوفاً لو لم يغن الطبيب العسكري بعد تلك الكلمات هذه الاغنية:

ترا- را- بوم-بيا اجلس على الكرسي انا. يعرف بان الجميع بان تشيخوف كان يعاني من التفاهة والسوقية، وقد صور هذه الساقية بالضبط (بتحديده هو: ككيميائي)،ولكن هذه هي مثلا قصة الكاتب الشاب انتوشا تشيخونتيه "بولكنا" صاحب الدكان في تلك القصة يعشق بولنكا –الفتاة الشابة، اما هي فأنها معجبة باحد الطلبة ، وعندما تبكي الفتاة في المخزن، فان صاحب المخزن يحاول الا ينتبه الى ذلك احد، فيبدأ بالصراخ باعلى صوته: "...اسبانية ، روكوكو، سوتاجيت، كاميري ، جوارب من القماش العادي ، جوارب حريرية..." وبهذه الكلمات تنتهي القصة.

اني لا اعرف ماذا تعني "سوتاجيت" أو "كامبري" –ان المودة تتغير، المودة وليس الاحاسيس ، ونهاية القصة التي تبدو ضاحكة ولكنها ليست كذلك في الواقع، هذه النهاية ذات التعابير التجارية السوقية التافهة ترن وتنبض بالنسبة لي كشعر رائع.

×××

تقرأ قصص تشيخوف وتعيد القراءة من جديد، ومن جديد تدهشك حيوية كل هؤلاء الاطباء، والفلاحين والطلبة والمعلمين، والمحققين والسيدات الليبراليات

والتعساء الذين ينتظرون الموت، والمساكين الذين يقتاتون في بيوت الاغنياء، والرهبان، وهؤلاء الذين يتبعون مبادئ تولستوي وتعاليمه، والسكارى والطفيليين، والممثلات واولاد السادة الاغنياء، والصعاليك والناس الفائضين عن الحاجة والذين هم في الواقع يعتبرون ضرورين للغاية، والناس المتأكدين بأنهم يقدمون فائدة ما ولكنهم يبدون فائضين عن الحاجلة والقتلة واللصوص والشهوانيين العاملين والكسالى وغيرهم هذه الكثرة الكاثرة من المصائر الانسانية والتراجيديات الكبيرة والدرامات الصغيرة.

لقد انطون بافلوفيتش اربعة واربعين عاما لاغير، ولم يمتد عمره اكثر من تلك السنين، وكان في السنوات الاخيرة مريضا جدا ومحكوما عليه بالحياة في عزلة بمدينة يالطا (تولستوي في عامه الرابع والاربعين لم يبدأ بعد بكتابة "أنا كارينينا" وكان دستويفسكي يعمل بروايته "الجريمة والعقاب"ولم يكن غانجروف بعد قد كتب رواية "ابلوموف" ولو ان ستندال مات في هذا العمر لما تبقى منه سوى "ارمانس"وبعض المقالات الاخرى.

بعض النقاد صوروا لنا تشيخوف على انه كسول ، بلا نشاط وحتى اطلقوا عليه اسم "الكسول الاخرق" ولكنه استطاع ان يجد مفتاح الاف قلوب الإنسانية وهو في هذا العمر القصير نسبياً، استطاع ذلك فقط لأنه كان يحب الحياة بعنف ولم يتأملها وحسب وانما تدخل فيها.

لقد سبح تشيخوف في نهر آمور، وسار متجولاً في شوارع روما، وحصد في حقول اوكرانيا، وتوغل في القرية الروسية النائية الصماء، وعندما كان يبقى لفترة طويلة في مكانٍ واحد، فان الضجر يدب الى قلبه رأساً ويبدأ برسم الخطط: من الممكن ان اسافر الى استراليا او الى الارض الجديدة؟ لقد كتب في احد قصصه يقول: "...ليس الانسان وانما الجثة هي التي تحتاج الى ثلاثة امتار من الارض...الانسان لايحتاج الى ثلاثة امتار من الارض ولا الى قصر ريفي، وانما هو بحاجة الى كل الكرة الارضية، الى كل الطبيعة ، حيث يستطع في سعتها الكبيرة ان يبين كل خصائصه ومميزات روحه الحرة".

مجلة الاقلام ١٩٨١

انطوان تشيخوف

دونكيشوت العزلة الإنسانية اللامتناهية

تشيخوف في جزيرة سالاخين

كوليت مرشليان

"إيش ستيرب" جملة أخيرة لفظها الكاتب الروسي الكبير انطوان تشيخوف قبل ان يغمض عينيه عن العالم للمرة الأخيرة، وكان ذلك في العام ١٩٠٤. ليست الجملة بالروسية انما بالالمانية تعلمها تشيخوف قبيل وصوله الى مدينة بادنويللر في محاولته الوحيدة للعلاج من مرض السل الذي كان يفتك بصدره منذ سن المراهقة، وحين دخل الطبيب الى غرفته وقد استدعته الممرضة على وجه السرعة لعدم قدرة تشيخوف على التنفس، رفض هذا الأخير وضع الأوكسيجين على أنفه وطلب ان يشرب كأس شامبانيا اخيرا، واكتفى بكلمتين فقط ودع بهما هذا العالم الذي بخل عليه كثيراً منذ طفولته التي غابت عنها السعادة، فرحل عن ٤٤ عاماً و٦ مسرحيات و٩ مشاهد مسرحية من فصل واحد وروايتين و٢٤٠ قصة قصيرة.

مات المسرحي والروائي والقاص تشيخوف عام ١٩٠٤ ورثاه النقاد في روسيا والعالم كواحد من عظماء البلاد وايضاً رثى الفقراء والمحتاجون تشيخوف الطبيب الذي كان يعالج مرضاه مجاناً، ووضعه هؤلاء في خانة قديسي بلاده، واليوم، يحتفل العالم بمرور ١٥٠ سنة على ولادته

انطون تشيخوف المولود في منطقة مرفأ تاغانروغ الصغيرة في روسيا من والدين امين، عاش طفولة بائسة في طبقة اجتماعية وصفها فيما بعد في مؤلفاته، وكان قاسيا في تصويره لهذا المجتمع على انه يضم اناساً جشعين يسعون وراء المال ضاربين عرض الحائط بكل المقاييس والاعتبارات.

وتعتبر اولى كتاباته بعنوان "فتافيت الخبز" أرسلها ضمن مراسلات خاصة أقامها مع شقيقه الكسندر حين بقي مع والده للعمل مع الدكان الصغير الذي تمتلكه العائلة وقد سافرت والدته مع اشقائه الى موسكو. هذه السنوات في ظل العمل الليلي في دكان الوالد جعلته يتأمل في الحياة ويراقب المارة ويستمع الى اخبارهم "محاولا ان ينتزع النعاس" من عينيه. عرف انطوان المراهق حياة صعبة في ظل والد عنيف يقسو عليه ويضربه. وسرعان ما انتهت هذه المرحلة بعد ان انتقل الى كلية الطب في موسكو عام ١٨٧٩ بعد ان لاحظ الوالدين نبوغه وذكاءه الحادين. لكنه استمر في العمل لمساعدة العائلة بالكتابة تحت اسماء مستعارة في مجلات هزلية وساخرة، في سانت بترسبورغ. تخرج طبيباً من دون ان يعطي الموضوع اهمية قصوى وكأنه بالطب يؤمن مصاريف العائلة وبقيت اهتماماته الأدبية والمسرحية لها الأولوية في حياته. فكتب مع بداية تعاونه مع الكسي سوفورين في الصحيفة اليومية "الوقت الجديد" اولى قصصه القصيرة، فكانت البداية مع "الحزن" و"الساحرة".

غير ان عمله المسرحي الأول "ايفانوف" لم يلق التجاوب الكبير من الصحافة، فغادر عام ١٨٩٠ الى جزيرة ساخالين عن طريق سيبيريا حيث راح يعالج المرضى والمساجين الذين يعيشون ظروفاً قاسية، وهناك كتب "التراجيدي رغما عنه" و"عرس". سافر بعدها الى ايطاليا وفيينا وفرنسا وكانت أولى رحلاته الى خارج البلاد حيث كتب ونشر "المبارزة".

عاش تشيخوف طوال حياته بائساً او متعاطفاً وبؤس الآخرين حين تحسنت احواله، فهو ما استطاع يوماً ان يبعد عن الطبقة الفقيرة التي عاش وسطها، وفي العام ١٨٩٢، اشترى منزلاً ريفياً وحقلاً أخضر في "ميليخوفو" حيث راح يكتب من ناحية ويمارس مهنته كطبيب ويعالج الفلاحين الفقراء والبائسين من حوله مجاناً.

وقد أكد تشيخوف أكثر من مرة لاصدقائه انها الحياة المثالية التي يمكن ان يعيشها على الأرض" اي بالكتابة وبمساعدة الآخرين. كانت روسيا في تلك المرحلة في حال من الفقر وقد ضربت المجاعة الأرياف الروسية والمناطق النائية. في كل هذا، كان تشيخوف ايضاً يعيش المرض، فقد كانت اصابته بالسل قد تفاقمت، لكنه تعاطى مع جسده المريض والهزيل على انه قرره واستمر في الكتابة. عام ١٨٩٥، التقى ليون تولستوي الذي كان يومها نجم البلاد وأديبها المكرس. في تلك المرحلة كتب "سخالين" و"النورس" و"منزل مزانين"، ورواية "الفلاحون". كما اصدر "رجل في جعبة مخزن" و"لوفيتش".. غير ان بعض الأعمال له كان لها وقعها فرسمت عالمه: "السيدة والكلب الصغير"، وأيضاً مسرحية "العم فانيا" وبعدها مسرحية "الشقيقات الثلاث"، و"بستان الكرز".. هذه الأعمال في المسرح أو في القصة القصيرة ستجعل تشيخوف يكسر القاعدة ويتخطى المفهوم الروسي لنجومية الكتاب. فحين كانت الرواية هي سيدة الموقف وروادها مثل تولستوي في الأربعة الأولى من المكرسين، دفع تشيخوف بالقصة القصيرة الى مكان رفيع المستوى وجعل العالم بأسره يتفاعل مع قصصه وشخصياته. وقد تمسك تشيخوف بالبساطة والصدق في أسلوبه القصصي وفي شخصياته وهو كان يعترف ويقول بأنه اراد دائماً ان يصور الحياة اليومية التافهة علَ القارئ يدرك معه حقيقة اقترابه من الهاوية بسبب حياته "المغفلة". وهو كتب في مذكراته: :كان هدفي دوماً من الكتابة ان اقول للناس بأن يتأملوا ملياً في حياتهم التافهة والمملة وحينما يدركون حقيقة الأمر سيحاولون خلق حياة جديدة وافضل لهم، اذ يرتقي الانسان حين يلمس بيده حقيقة الحياة التافهة التي يعيشها..".

وفي أعمال المسرحية، لم يخرج تشيخوف من اطار الريف الروسي والمناطق النائية حيث يعيش ابطاله تماما كما عاش هو، ذاك الريف البائس حيث لا تتعدى اهم الأحداث مرور ساعي البريد أوموظف الضرائب أو الأعراس أو المآتم او الاحتفالات الموسمية التي تجعل السكان يتلاقون، يتحابون، او يختلفون ثم لا يلبث كل واحد ان يعود الى قوقعته ووحدته.

عاش تشيخوف طوال حياته بائساً او متعاطفاً وبؤس الآخرين حين تحسنت احواله، فهو ما استطاع يوماً ان يبعد عن الطبقة الفقيرة التي عاش وسطها، وفي العام ١٨٩٢، اشترى منزلاً ريفياً وحقلاً أخضر في "ميليخوفو" حيث راح يكتب من ناحية ويمارس مهنته كطبيب ويعالج الفلاحين الفقراء والبائسين من حوله مجاناً.

وقد أكد تشيخوف أكثر من مرة لاصدقائه انها الحياة المثالية التي يمكن ان يعيشها على الأرض" اي بالكتابة وبمساعدة الآخرين. كانت روسيا في تلك المرحلة في حال من الفقر وقد ضربت المجاعة الأرياف الروسية والمناطق النائية. في كل هذا،

الشقيقات الثلاث
في واحدة من اجمل أعماله المسرحية "الشقيقات الثلاث" يحكي كيفية غرق الشقيقات الريفيات في عالم يتحلل أمام أنظارهن وحين تسقط كل واحدة من الثلاث على مدة في واقع فشل تحقيق أحلامها، يبدأن بالبحث عن سبب لوجودهن وكأنهن يطرحن السؤال التالي: "ما جدوى الحياة؟" او "ما معنى كل ما يحدث من حولنا؟" ويسقط المشاهد تماماً كما البطلات على الخشبة في عبثية خانقة ظاهرها أحداث بسيطة من الحياة اليومية وباطنها عميق مثقل بأسئلة تبقى بلا اجابات وتضفي غموضاً وسحراً وشاعرية مضمرة لا مثيل لها. وسرعان ما يكتشف المشاهد انه لم يعد مشاهداً وحسب بل وكأنه انتقل الى الخشبة، فالمشكلة لم تعد مشكلة الشقيقات الثلاث والسؤال لم يعد يعنيهن وحدهن، ومغامرتهن صارت مغامرة الجميع واليأس صار يأس الجميع والضياع صار مشتركا والحلول مؤقتة والمتع آنية.
"الفودكا، البوكر،.. والنساء يدخلن في متاهة الخيانة، والرجال يكذبون ويتصرفون كأنهم لا يلاحظون الخيانة ولا يسمعون شيئاً وكل هذا يرخي بثقله على الأولاد ويطفئ الشعلة المقدسة داخلهم فيصبحون مجرد جثث أكثر تعاسة من الآباء والأمهات...".
بستان الكرز
كذلك صوّر في "بستان الكرز" نهاية عائلة في نهاية مسكنها المرهون للفأس وحاجة الحطّابين وصور في "العم انيا" ملل الحياة الرتيبة في الريف وحاول أن يجعل بعض الشخصيات الساعية فيها الى المثال الإيجابي تتواجه مع شخصيات هزمتها أحلامها الخائبة. وقد يصل القارئ أو المشاهد معه الى حقيقة رهيبة وهو يلخصها في نهاية مسرحية "النورس" بالقول: "الطقس بارد، بارد، بارد. والمكان صحراء، صحراء، صحراء". لكن تشيخوف لا يترك أبطاله وشخصياته في ضياع كامل، فهو يفتح لهم بعض النوافذ وهو يشير الى مكامن مستقبل ممكن أو سعادة ممكنة، ولكن حتماً هو لم يعتبر ولا في أي عمل من أعماله أن السعادة في الحاضر الراهن، بل دوماً في حنين الى الماضي أو في توق الى مستقبل ممكن. وللحاضر ولسطوته لا يجد تشيخوف لأبطاله سوى أن يسعوا الى قتله بالروتين والحياة البسيطة والحركات اليومية المملّة.
كل هذا أوحاه تشيخوف وجسّده في أدبه وتحديداً في قصته وفي مسرحه بالإيجاز وهو اعتبر أن "في الإيجاز موهبة"، فسرعان ما صار في بلاده "نجم" القصة القصيرة ومبدعها، وروسيا التي كانت تسهر وتنام على مئات الصفحات من روايات مبدعيها الكتاب والروائيين مثل تولستوي ودستويفسكي وغوغول أصابتها لسعات تشيخوف المحفّزة على التحرك والنهوض والمضي في السعي نحو عالم أفضل ومستقبل أجمل.
قصص
قصص تشيخوف القصيرة حرّكت وتفاعلت وتركت أثرها في نفوس مواطنيه وفي أحلامهم اليقظة. كذلك وصل أثر أعماله خارج بلاده وليس جديداً القول بأهمية أثر تشيخوف وأعماله على العالم العربي برمّته أيضاً. غير أن أعماله المسرحية لم تلقَ النجاح في بداياتها كما حصل مع قصصه القصيرة لما تمتع به هذا المسرح من مميزات ومن غير خصائص مألوفة جعلته مرفوضاً في البداية. ففي مسرح تشيخوف نفتقد البطل بالمعنى التقليدي للكلمة. فما من بطل جيد ولا آخر شرير ومرفوض. هناك فقط شخصيات تعيش يومياتها وتتخبط في واقعها وإلى ما يؤدي بها مصيرها. وغالباً ما تكتشف

قصص تشيخوف القصيرة حرّكت وتفاعلت وتركت أثرها في نفوس مواطنيه وفي أحلامهم اليقظة. كذلك وصل أثر أعماله خارج بلاده وليس جديداً القول بأهمية أثر تشيخوف وأعماله على العالم العربي برمّته أيضاً. غير أن أعماله المسرحية لم تلقَ النجاح في بداياتها كما حصل مع قصصه القصيرة لما تمتع به هذا المسرح من مميزات ومن غير خصائص مألوفة جعلته مرفوضاً في البداية. ففي مسرح تشيخوف نفتقد البطل بالمعنى التقليدي للكلمة. فما من بطل جيد ولا آخر شرير ومرفوض.

شخصيات تشيخوف مأساة عيشها متأخرة، مع اقتراب موتها أو تماماً مع حصول أحداث مأسوية معها لا رجوع عنها أو بكل بساطة مع فشلها. وكل هذا يتناقض مع المسرح الذي كان ما قبل تشيخوف في روسيا أو في الخارج. لكن ثمة لقاء سوف يضع أعمال تشيخوف على المحك وهو اللقاء الذي حصل بينه وبين ستانسلافسكي وأيضاً نميروفيتش دانتشنكو، وذلك في "مسرح الفنون" في موسكو، حيث كانت التجارب المسرحية الحديثة قد وصلت في مفاهيمها الجديدة الى رفض فكرة قيام المسرح على أحداث تتطوّر وعلى كلمات متراصّة تُقال لتفعل فعلها بل صار يقوم على ما لا يُقال وعلى ما لا يحدث تماماً كما أراده المحدثون في النصوص المسرحية التي صارت تجتمع تحت خانة "ما وراء النص" وتحت خانة "ما خلق الممثل" حيث لم يعد لهذا الأخير بريقه على الخشبة بالمعنى "النجومي" بل صار أداة وكأن مسرح تشيخوف اخترع مقاربة جديدة "لمهنة" الممثل أو لدوره بكل بساطة على الخشبة. كذلك الأمر بالنسبة الى الرؤية المسرحية والإخراج التي جعلها ستانسلافسكي تتأثر بكل التفاعل الدرامي الجديد. وإذا ستانسلافسكي كوّن رؤية مغايرة للإخراج المسرحي فهو وجد نفسه بحاجة الى كاتب يتماشى مع أفكاره ولم يكن هذا الكاتب سوى تشيخوف الذي أبدع في "ايانو" و"بلاتونو" و"رجل الغابات" و"النورس" و"العم انيا" و"الشقيقات الثلاث" و"بستان الكرز" كما أبدع في نصوص مسرحية من فصل واحد عديدة أبرزها "الدب" و"طلب زواج" و"العرس" و"تاتيانا ريبينا" و"غناء البجع"... وغيرها من النصوص التي بنت عالماً عدمياً أبطاله يعيشون التمزّق والإحباط باطنياً وظاهرياً يتحركون على الخشبة بما لا يوحي بالثورات الداخلية التي تغلي في أجوافهم. أما أبرز قصص تشيخوف القصيرة ونذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر: "الممثل الهزلي"، "المرآة المشوّهة"، "في أرض غريبة"، "الزائر"، "الكاتب"، "نهاية ممثل"، "بولينكا"، "ولوديا"، "المرأة مع الكلب الصغير"، "بعد المسرح"، "قصة غريب"، "لاديمير الكبير ولاديمير الصغير"، "مملكة النساء"، "كمان روتشيلد"، "الخوف" وغيرها... فإن تشيخوف يبدو سوداوياً ومحباً للنكتة في آن، فهو ساخر من الدرجة الأولى ولكي يكتب فهو ليس بحاجة لأن يخترع شيئاً فكل شيء جاهز وواضح أمامه، وما عليه سوى المراقبة والكتابة، وهو اشتهر بقوله: "لكل وجود إنساني أو لكل شخصية سرّها الغامض وما على الكاتب إلاّ النظر في كيفية ولوج هذا السر"... والأمر يبدو أكثر تعقيداً مع الشخصيات الأنثوية في أعماله حيث أن المرأة تشكل لغزاً صعباً دوماً مع أنه كان يصفها بأجمل الأوصاف: "ليس من قصة ناجحة أو جميلة إذا ما وجدت فيها النساء، فهي تبدو مثل آلة من دون محرّك". وفي قصص تشيخوف كما في مسرحه تلتقي نساء من كل الفئات ومن كل الأعمار ومن كل المجتمعات، لكنهن دائماً وعلى رغم جمالهن أو شبابهن ضعيفات، بائسات وأحياناً شريرات وهو من موقعه ككاتب، يحاول فهمهن وتحليل تصرفاتهن ومواقفهن التي تحمل دائماً شيئاً من الغرابة. وفي حياته، لم يعرف تشيخوف الحب الكبير والشغف بالمرأة، فكان يتقن فن الهروب حين يجد نفسه ضعيفاً أمام إحداهنّ: "بعيداً عن شهرتي في الكتابة، تجدون حياتي مملّة وحزينة لكني عرفت كيف أجد السعادة في أمكنة محايدة، منها الكتابة". وهو بقي هارباً من الارتباط والزواج الى حين التقى الممثلة أولغا كنايبر وكانت بصدد قراءة نص له مع فريق مسرحي. أغرّم بها على الفور وتزوجها قبيل وفاته بأربعة أعوام. كانت كثيرة الأسفار لتقديم أعمالها المسرحية، كذلك تشيخوف وهو لخّص علاقتهما بالآتي: "كم أحب هذا الواقع بأن تكون لي إمرأة تصل الى سمائي ثم لا تلبث أن تغادر وتغيب تماماً مثل القمر في تحوّلاته، وحين يكون القمر مكتملاً تمرّ علاقة الحب هذه بأجمل لحظاتها". أما عن ممارسته لمهنة الطب والكتابة معاً فكان يصف الأمر بالآتي: "مهنتي كطبيب هي التزام مني كالزواج تماماً والكتابة هي العشيقة التي ألجأ إليها حين تدعو الحاجة الى ذلك". وهذا الإحساس القوي بالحرية أو هذه الضرورة القصوى للحرية لدى تشيخوف ميّزته وهو كان يتحول الى إنسان حاد ومباشر في الهجوم حين كانت حريّته تُنتَهك من قبل الآخرين، تماماً كما أراد دائماً أن تنتهي قصصه وأعماله المسرحية مشوشة ومفتوحة على المجهول، وغالباً ما أتت الجمل الأخيرة في أعماله تحمل الشكّ وأيضاً الخيال والحلم والأمل. فتشيخوف في أعماله لا يجرح لكنه يشد على ذراعك بقبضة يده ويجعلك تفكّر وتعيد النظر بالامتلاء الإنساني العميق كما يجعلك تمضي في رحلة على دروب عزلة الإنسان اللامتناهية، وحين يرصد الحقيقة، فهي صارخة وفاعلة وحين يصمت والصمت كثير في مسرحه فهو يعطي المتفرّج فرصة لإطلاق العنان لمخيلته ولأحلامه ولإرادته. أنطون تشيخوف الذي ولد وعاش في روسيا وكتب بلغته الأم أجمل مؤلفاته أنهى كل كلامه بلغة لا يتقنها ولا يفهمها، فاختار بالألمانية كلمتيّ "إيش ستيرب" كما ذكرنا في بداية المقالة ليودّع العالم وكأن في ذلك علامة لاواعية منه على عبثية هذا الكون وعلى تشابه الصراخ هنا وهناك أمام الألم الإنساني وأمام حقيقة الموت التي أدركها ربما بعد ومضة على تلفّظه هاتين الكلمتين الغريبتين عنه، فاتّحد في لحظة المعلوم بالمجهول والملموس بالمبهم والجليّ بالغامض

عن جريدة المستقبل اللبنانية

تشيخوف والرؤية الجديدة

بقلم صالح عبد علوان

ما يزال الجدل والنقاش قائما حتى الان في اكثر المسارح عراقة عن كيفية تناول مسرح تشيخوف هل هو ماساة أم كوميديا ام هل هو الكوميديا المأساوية؟ وحتى عندما كان تشيخوف على قيد الحياة واخرج ستانسلافسكي (بستان الكرز) كتب الى تشيخوف يقول (هذه ليست كوميديا بل انها ماساة) في حين قال تشيخوف عنها انها كوميديا ففي انكلترا –باريس (بيتر ستين) وفي جنيف (مانفير كارل) وفي باريس (انطوان فيتز) وفي ايطاليا ، وكأنهم اتفقوا جميعا على معالجة مسرح تشيخوف برؤية عصرية جديدة سميت بعد ذلك بالرؤية المتعددة الجوانب، واكثر هؤلاء المخرجين تجربة ونضجا هو (بيتر بروك) الذي يدعونا للدخول الى بيت رانيفسكايا في مسرحية (بستان الكرز) بل وحتى المشاركة في الاحداث وكأننا في صميمها ولسنا متفرجين.
والغريب ان (بيتر بروك) لم يعرض المسرحية في مسرح بل في بيت يعود طرازه في البناء الى القرن التاسع عشر موغل في القدم وبال ولكنه ولفخامته يوحي بالعظمة والابهار في الوقت نفسه ثم اكمل هذا الاحساس بالديكور والذي هو عبارة عن نوع من السجاد زاهي اللون ولكنه قديم ومتآكل وبدلا من ان يرمم البيت جعل في جدرانه التقرب ولطخه بالوان سوداء وغامقة حتى يوحي بالتلف والتآكل وعندما ندخل نحن المشاهدين الى البيت –المسرح ينتابنا الاحساس بالنهاية أي نهاية كل ما هو موجود في هذا البيت لانه حول ملاحظة تشايكوف في اخر المسرحية (نسمع صوت معول يقطع الاشجار)، الى فعل في بداية المسرحية أي انهيار مجتمع رانيفسكا وانهيارها بسبب ضعفها الذي جعلها تفقد بستانها الذي يبتاعه احد اقربائها انها صورة محزنة لانهيار اناس متحضرين تغلبت عليهم الروح التجارية، اعتمد بروك في عرضه على البساطة والايحاء الى درجة ان احد النقاد الكبار وهو (جورج بانو) الاستاذ في معهد الدراسات المسرحية في جامعة السوربون قال" لقد استطعت تأمل منظر سقوط المطر الخفيف من خلال شبابيك بيت رانيفسكايا) فالممثلون يجلسون على الارض والجمهور من حولهم على شكل نصف دائرة لان البيت فيه فسحة كبيرة في الوسط ومكون من ثلاثة طوابق في كل طابق شرفة لجلوس المشاهدين وفي الوقت نفسه لحركة الممثلين فمثلا غرفة النوم في الطابق الثاني تجري فيها بعض المشاهد بالرغم من وجود الجمهور الذي يطل من الشبابيك وغالبا ما تجري مشاهد الخروج الى البستان من بين الجمهور الى درجة اننا نشاهد الممثلين بتحركون بكل انسيابية وكأنهم في بيوتهم من دون مبالغة او عناء والطريف في العرض ان بروك يلجأ الى المفاجأة في كل يوم عرض ففي اليوم الذي كنت اشاهد فيه المسرحية كتب على باب المسرح العبارة التالية: نرجو عذركم لان الممثل الفلاني اصيب في قدمه كنت متشوقا الى رؤية الممثل وهو يمشي بصورة غير طبيعية لكنني اندهشت حين شاهدته يمشي بشكل طبيعي بل واكثر حيوية من بقية ايام العرض انه يريد من هذه المفاجأة اخراج الجمهور من المألوف.
و(بيتر بروك) شديد العناية باختيار افضل ترجمة للمسرحية لقد عمل مدة طويلة مع كبار المترجمين مثل (لوسيان لور) و(جان كلود كارير) ثم قارن بين الترجمتين الانكليزية والفرنسية فوجد ان الاول اختلق اسلوبا شعريا متينا ولكنه يفتقد الى الصور في ترجمة الثاني كانت هناك شفافية واضحة بل انه استطاع ان يصل الى ترجمة الايقاع والفعل الدرامي واستطاع ان يقترب باخلاص من النسخة الاصلية في اللغة الروسية وفي بعض الاحيان كان بروك يتدخل بمعالجة النصوص المترجمة حيث يقول (وحتى اذا كان العمل لايحمل ايقاعا عاما- بسبب الترجمة –نستطيع معالجته بواسطة الممثل الذي يكون حرا في ايجاد ايقاع مختلف لكل لحظة بحيث يستطيع ابراز الافعال المضحكة أو المبكية او الاثنين معا بل في بعض الاحيان عليه اكتشاف الحياة ما بين الافعال، ولكن هذا لا يعني ان كل ممثل يكون بهذه الحرية من التقلبات نقول عنه انه عميق وصادق ولكي يصل الى هذه الرؤية المتعددة الجوانب وبشكل مؤكد عليه تشييد البناء على شكل موزائيك متناغم مع كل لون وكتلة وكأنها فعل قائم بذاته حيث لاتوجد كلمة او عارض ما لم يكن له ايقاع خاص ومعنى) ولهذه الاسباب كان بروك يهاجم المخرجين في انكلترا حيث ان لهم نظرة احادية الجانب لتشيخوف فهو في رأيهم عبارة عن موسيقى حزينة وعاطفية.
هذا جانب من رؤية بروك لتشيخوف والذي يكون عنصره الاساسي الممثل فالديكور والملابس والاكسسوار يدخل عليها تعديلات كبيرة حتى في ايام العرض لانه يعتقد بأنه في كل يوم من ايام العرض يكتشف عوامل مكملة لعرضه نتيجة استجابة الجمهور والممثل أي عملية الاخراج لديه تستمر حتى اخر ايام العرض فمثلا مسرحية (بستان الكرز) اخرجها ثلاث مرات في ثلاثة اعوام متعاقبة وفي كل مرة نراه متميزا عن سابقتها ، ويقول ان مسرحيات تشيخوف وشكسبير تتيح لي حرية كبيرة في التعبير عن رؤيتي في المسرح والسينما كما تتيح لي ايجاد علاقة بين الممثلين تطربهم وتحمسهم لتجسيد رؤيتي والتي احرص دائما على الا يكون المسرح في المسرحية.

مثل توت عنخ آمون رحل آنطون تشيخوف شابا ليعيش في التاريخ بهذه الصفة فاتنا واسطوريا مساهمة متواضعة من الموت ربما لم تكن ضرورية لصنع خلود كاتب لم تعرف كتابته الهرم، وقد اجتازت مئة عام من الحياة بعد موته اسقط فيها غربال الادب الكثير من النخالة مبقيا على عدد محدود من الاسماء في كل ثقافة واقل منها عدد الاسماء العابرة للحدود القومية واللغوية، لكن باية صفة عبر تشيخوف الحدود وسافر هذه المئة الاولى في الزمان؟
هل هو كاتب كلاسيكي لانه قادم من زمان اخر، ولأن احدنا لا يمكنه اليوم ان يكتب كما كان يكتب تشيخوف؟

كالفينو يسأل: لماذا نقرأ تشيخوف الان؟

يمكن ان نتورط في الاجابة بنعم دون روية ، لكن إيتالوكالفينو يقترح تعريفا للادب الكلاسيكي، ساخرا بقدر ما هو دامغ، هو الادب الذي نقول دائما اننا بصدد إعادة قراءته"١" .
يتربص كالفينو بحالة الخجل، من كوننا لم نقرأ هذا الكاتب او ذاك ممن يعتبرهم حدسنا الادبي ضروريين من اجل تكويننا الثقافي ليصنع منها تعريفا مناسباً وبهذا المعنى فتشيخوف ليس كلاسيكيا ليس ثمة خجل من كوننا لم نقرأه –نحاول ان نداريه بالكذب! فهو بوابة دخول ضرورية للكاتب منذ البداية ولا اظن ان هناك الكثيرين ممن يمكنهم ان يتجاسروا على النزول على ميدان القصة دون درس تشيخوف الاول.
القصة الاولى التي قرأها احدنا لانطون هي بمثابة الحب الاول رعشة الملامسة الاولى التي نظل نستعيدها بالاضطراب ذاته، حتى لو اقنعتنا الحياة بإمكانية الوقوع المتكرر في الحب، فأن الحبيبة الاولى لايمكن ان تعبر بعصاها مجال البصر الشحيح لحبيبها القديم دون اثر، فما البال لو كانت الحبيبة فقد أكلت من عشبة الخلود تدور عليها الايام دون ان تنال من شبابها؟!
عشبة الخلود التي تتضمنها قصصه هي السر الذي يمنع المرة الاولى النى نقرأ فيها تشيخوف من ان تكون الاخيرة.
هذا الحضور الدائم هو ما يرسل بأنطون بافلوفيتش بعيدا عن الادب الكلاسيكي كما عرفه الايطالي ايتالو كالفينو الذي يمكن الوثوق بذكائه، وان كان لنا ان نثق في حساسية كالفينو ايضا يكون تشيخوف قد ذهب الى مسافة من الكلاسيكية ابعد بما لايمكن تصوره.

× × ×

قبل ان تحل الالفية الثالثة بخمس عشرة سنة، ترك لنا كالفينو ست وصايا اعتبرها ضرورية للادب في الالفية الثالثة "٢" اوصى بالخفة ، السرعة، الدقة، الوضوح ، والتعددية، حاول كالفينو بالاحرى ان يضع القيم التي يحبها في طريق الالفية الجديدة دون ادعاء بأنها كانت غير موجودة من قبل، بل ان الكتاب الذي انجزه في شكل محاضرات لم يمهله القدر لألقائها في احدى الجامعات الاميركية تتبع هذه القيم في تراث الانسانية من ريشة الالهة ما عدت الى بورخيس وجورج بريك مرورا بالتراث الشيوناني وكلاسيكي اوروبا وايطاليا خصوصا، لكنه للاسف لم يأت على ذكر تشيخوف الذي تتجلى هذه القيم في كتابته بشكل فذ.
الخفة التي عناها كالفينو وجعل منها معيارا للنجاح والفشل، واعتبرها منهج عمله هي: "إزاحة الثقل عن الناس احيانا، واحيانا عن الكائنات السماوية، واحيانا عن المدن، وفوق كل شيء.. حاولت ازاحة الثقل عن بنية القصص واللغة، واذا كان تشيخوف لم يبلغ بالخفة الحد الذي بلغ كالفينو في الفارس الخفي" وقد جعل درعا فارغا يتحرك ويحارب وينتصر في المعارك ، فانه صنع خفته الخاصة فكائناته تكاد تهم بالطيران في بدايات القصص ، لكن حس المفارقة والسخرية لديه هو ما يقود القصة سريعا الى الثقل، وبجدل الخفة والثقل يرسم تشيخوف لوحاته النادرة للألم الانساني الموظف الذي يجلس في الصف الثاني من الصالة ذات مساء رائعا مستشعراً قمة المتعة في انتظار اجراس المسرح يعطس فجأة وتتحول عطسته في قفا الجنرال الى رعب يؤدي به الى الموت.
ولايمكن ان يعتبر السرعة التي تجري بها الاحداث معيارا للحداثة الا يتوقف امام التشابكات العنيدة، والانعطافات السريعة الحادة وغير المتوقعة في قصص تشيخوف، لكن احدا لن يكتب بالسرعة والوضوح والدقة التي في هذا الوصف: "وبينما كانت انا بافلوفنا تتحدث مع زوجها ضمرت وهزلت وشاخت".
هذا الوصف ورد بقصة ليست في شهرة موت موظف، او دموع لايراها العالم، هي قصة الزوج، والتي تعد وحدها تمثيلا لقيم الخفة والسرعة والدقة والوضوح وتبدأ هكذا: "توقف احد افواج الخيالة اثناء المناورات للمبيت في مدينة (ك) الريفية الصغيرة، وحدث مثل مبيت السادة الضباط يثير دائما مشاعر السكان المحليين الى اقصى درجات الانفعال والحماس.
ونرى في القصة الى جانب حماس التجار لتصريف بضاعتهم الكاسدة حماس سيدات المدينة الضجرات من الحياة الراكدة وكان في المساء حفل الرقص الذي توردت فيه آنا، وقد ساء زوجها الحاسد ان يراها خفيفة وسعيدة فأمرها بالعودة الى البيت، في المناقشة التي لم يستجب فيها لتوسلاتها والتي جعلتها في لحظة واحدة تضمر وتهزل وتشيخ.
يبقى ما عناه كالفينو بـ "التعددية" في الرواية – ولا نظن ان عظامه ستتململ لو استبدلنا كلمة الرواية بكلة الكتابة –وهي ان تكون : "كموسوعة" كمنهج معرفة وفوق كل شيء كشبكة من الصلات بين الاحداث وبين الناس واشياء العالم" ولو انه اختار البحث عن تجليات وصيته الاخيرة في اعمال تشيخوف لما كلفه ذلك أي جهد فرغم ان حنان تشيخوف موجه غالبا الى المذلين المهانين من الخدم والمربيات وصغار الموظفين الا انه لم يعتبر الفاسدين من كبار الملاك ورجال البلاط السبب الوحيد للشقاء في العالم، هناك ايضا النفاق والتهاون لدى الفقراء الذين يتلون بعضهم كالحرباء ليكون دائما في خدمة من يظلمونهم، الجمادات ايضا لها ملامح البشر أو على صلة قوية بها، في قصة جهاز العروس يشبه بيتا من طابق واحد بعجوز حدباء صغيرة بقلنسوة، اما في قصة حلة النقيب ، فانه يصف عالما منسجما في بؤسه بشكل تضامني مدهش، عبست الشمس صاعدة فوق المدينة الاقليمية ، وبدأت الديوك تتمطى لتوها، بينما كان الزبائن جالسين في حانة العم ريلكين كانوا ثلاثة : الخياط ميركولوف ، والشرطي جراتفا وساعي الخزينة سميخونوف وكانوا ثلاثتهم سكارى" وما يقهر كل هذا الواقع ويثير اعجابه في نفس الوقت ليس ضابطا، وانما بدلته المتكبرة مثله التي دفع فيها الخياط ثمن البقرة لانه يعرف كيف يتعامل مع السادة الحقيقيين الذين لايدفعون ثمن ما يحصلون عليه!
يمكننا بالطبع ان نضيف الى جانب قيم كالفينو قيمة حداثية اخرى لدى تشيخوف، هي قيمة الاهتمام بالجسد الذي استأنف ظهوره في النصف الثاني من القرن العشرين ووصل الى العالم العربي متأخراً، وان كان هناك اختلاف يعود الى طبيعة الزمن، فجسد ما بعد الحرب العالمية الثانية ظهر في الكتابة بتجليه الايروتيكي ، بينما رأى تشيخوف الموجوع يظلم القياصرة وكبار الملوك جسد القاهر والمقهور، وصف فساد الجسد في تخمة الاغنياء وهزال الفقراء، وقد اهداه الزمن مساهمة اخرى من خلال التوحش الجديد للرأسمالية الذي يعيد ازمان القياصرة والاقنان ويجعل من جسدي النحيف والبدين امثولة صالحة للالفية الثالثة.

عزت القمحاوي جريدة اخبار الادب
٢٠٠٤

الوجع يتمرد بعد اكتشافه متأخراً

كيف جسَّد تشيخوف الألم في عنبر رقم ٦؟

أنطون تشيخوف من المبدعين القلة في كتابة فن الرواية القصيرة ومن الأوائل الذين كتبوا للمسرح الروسي وذلك في القرن التاسع عشر وقد نال شهرة كبيرة لصدقه الفني وإبداعه في مجالات مختلفة في حقل الأدب وتجسّيده للواقع في تلك الفترة المضطربة في تاريخ روسيا القيصرية ، وكشفه عن المعاناة والألم من خلال أعماله الأدبية المختلفة وقد أستطاع أن يجد له صوتاً متميزاً على الرغم من وجود عمالقة الأدب وبخاصة في كتابة الرواية كدوستويفسكي وتولستوي وغيرهما من الأدباء والفنانين في تلك الفترة أو قبله بسنوات ، لكنه مع هذا أستطاع أن يجد طريقته المتميزة في كتاباته ، وبخاصة تكثيف الجملة وعدم الأطناب والسرد المجاني . والوصول الى المبتغي بطريقة سهلة ومختصرة ، كاشفاً عن المعنى وقول الحقيقة بصفحات قليلة يمكن أن تأخذ من كاتب غيره في ذلك الوقت الصفحات الطوال بجمل طويلة ورتيبة.

عبدالرزاق صالح

لكنه بطريقته الاختزالية أستطاع أن يوظف الأحداث والوقائع الكبيرة بلغة وحوار مسرحيين بحيث تكون لغة السرد واضحة ومكثفة وخالية من البهرجة والمطولات الفلسفية ، لكنها في الوقت ذاته لغة فكر علمي وعملي ، لغة مكتنزة بمضامين وأفكار الواقع المعيشي بطريقة بسيطة وسهلة وواضحة ، لأن ركيزة من ركائز الأدب الأولى هو الوضوح وتوصيل المفاهيم بأبسط طريقة وهذا مافعله الكاتب وأستطاع من خلال طريقته هذه والتداخل الفني بين الرواية والمسرح أن يخلق جواً جديداً لرواية القرن التاسع عشر من خلال توظيفه الحوار الذاتي لشخوصه على مستوى فكرة البناء المتماسك حتى الوصول للهدف المنشود وذروة الحدث التراجيدي كما حدث في روايته(عنبر رقم ٦) ترجمة د. أبو بكر يوسف.

عاش الدكتور أندريه يفيميتش - بطل الرواية- (أكثر من عشرين سنة في مهنته ولم يعرف الألم ولم يرد أن يعرف هذا ، لم يكن يعرف ولا يتصور ماهو الألم)"١"، لكنه أصطدم به أخيراً ولمدة يوم واحد فقط، وأخذ يعاني من قسوة الألم ، ولم يتحمل ومات في صباح اليوم التالي ، بعد أن وضعوه في عنبر رقم ٦ وهو عبارة عن ردهة في مستشفي المجانين ، كما يدعون، وهو طيلة تلك الفترة (عشرين سنة) كان يعمل كدكتور في المستشفى نفسه، ويعالج المرضى الراقدين في ذلك العنبر، وبخاصة المريض إيفان دميتريتش - صديق الدكتور- الذي تحمل الألم والعذاب طوال تلك السنوات مع المرضى الراقدين في تلك الردهة، وكثيراً ما كان يتحدث مع بطل قصتنا (أندريه) ويتجادل معه في أمور كثيرة ، قبل أن يتهموا الأخير بالجنون.

هذه الحبكة هي التي وظفها الكاتب وبمعقولية عالية كاشفاً زيف الإدعاء من قبل النفوس المرائية والغبية والبليدة التي تتحكم بمصائر الناس وبخاصة المثقفين والعلماء والمخلصين في العمل ، حتى يؤدون بهم الى الجنون ، كما حدث لبطل قصتنا(أندريه) ومريضه المثقف(إيفان) محضر محكمة سابق وسكرتير المحافظة.

الدمار أو الموت

إنَّ حكم الواقع صعب وعسير على النفوس الأبية والحساسة من قبل المنتفعين والفوضويين واللاأباليين وبخاصة في فترة روسيا القيصرية قبل الثورة .

الشريحة المثقفة كانت تعاني من جنون الاضطهاد في تلك الفترة ،وهو مرض يقودها في الأخير الى الدمار أو الموت ، وقد جسَّد الكاتب ذلك في عمله هذا(عنبر رقم ٦) ، إذ أن (إيفان دميتريتش) كان يعاني من هذا المرض وانعكس ذلك على تصرفاته التي قادته الى مستشفى المجاذيب .

إنَّ التحليل النفسي للشخوص جاء من خلال واقع عملي وعلمي ، فالكاتب على تماس من هذه الحالات بحكم واقع عمله ومشاهداته اليومية لمثل تلك الحالات ، فجاء هذا العمل الأدبي مطابق لواقع حال تلك الشرائح الاجتماعية التي كانت تعيش في تلك المدن الروسية وبخاصة بطرسبرغ وموسكو ، أنها حالة التأزم الفكري والضياع والمعاناة في ظل الحكم القيصري ، وبالفعل أستطاع الكاتب أن يجسِّد تلك المعاناة البشرية والألم الذي تعيشه تلك الشرائح.

إنَّ الفوضى والبلبلة الفكرية تقود الإنسان المثقف الى الاغتراب ، حتى عن ذاته، وتؤدي به الى هلوسات وظنون غريبة عجيبة ، هكذا أستطاع الكاتب أن يكشف وبوقت مبكر عن المعاناة الحقيقية للمثقفين من خلال شخوصه في هذا العمل الأدبي الفريد ، وهذه واحدة من خصوصية الأدب بالإضافة الى الوضوح والمصداقية في طرح المفاهيم والرؤى من أجل الوصول الى الهدف المنشود، أن التوضيح ليس معناه البساطة الساذجة في الطرح ، ولكنه كالسهل الممتنع في طريقة الكتابة الأدبية ، ولكن بنبرة وتفرد بحيث نرى بصمات الكاتب واضحة وصوته متميزاً من خلال المعالجة الذاتية للحدث ، وهذا يقودنا الى ظاهرة الموضوعية في الحيز الثقافي السائد في القرن التاسع عشر، والحصيلة الفكرية لجماعات المفكرين والمثقفين في تلك الحقبة الزمنية، هكذا كان واقع الألم الإنساني الذي قام الكاتب بكشفه في(عنبر رقم ٦) الذي يمثل صورة من صور البؤس في مستشفيات روسيا في تلك الحقبة الزمنية، ويعكس مدي ما وصلت اليه الطبيعة البشرية من خسة ودناءة وهي تضطهد أخوة لها في الإنسانية على مرأى ومسمع السلطات في المدينة.

إنَّ المعالجة الذاتية وحدها لاتكفي ، لكن تحتاج الى جهد كبير من قبل جماعات مستعدة للتغيير ، وهذا ماحدث أخيراً في انتصار الثورة على قوى الشر في تلك الحقبة الزمنية .

الكاتب كان يعي محنة الثقافة والمثقفين وحرمانهم المادي والروحي، لكنهم كانوا يتصدون للقيم البالية والمعتقدات السائدة في ذلك الوقت كما فعل كاتبنا في عمله هذا وغيرها من الأعمال وبخاصة في المسرح.

الوصف الشاعري أضفي على العمل طابعا من الرومانسية الحزينة ، تجسَّدت من خلال معاناة الشخوص المرضى قي ردهة المستشفي(عنبر رقم ٦) ، إذ أستطاع الكاتب وبلغة موحية أن يكشف عن المعاناة الإنسانية لتلك النفوس ذات المشاعر الرقيقة والمرهفة الحس والمضطَهَدة في الوقت ذاته، إذ بينها الموظف والمثقف وصاحب النبالة، أنها لغة الفنان (أنطون تشيخوف) الذي يعبر بصدق عن طوية تلك النفوس البائسة في هذا السجن الموبوء، وهي - أي تلك الشخوص - التي كانت تعيش قبل ذلك في حرية ووداعة ، وهاهي اليوم تعاني من الحرمان في هذه الردهة (السجن) . لغة الكاتب جريئة وواضحة حين يشن الهجوم على الطغاة في ذلك العصر وفي كل عصر (وهو يتحدث عن الوضاعة البشرية وعن الطغيان الذي ينتهك الحق ، وعن الحياة الرائعة التي ستكون على الأرض بمضي الزمن، وعن قضبان النوافذ التي تذكره كل لحظة ببلادة الطغاة وقسوتهم) هذا ما ورد على لسان (إيفان دميتريتش جرموف) في الصفحة الحادية عشرة من الطبعة العربية - عنبر رقم ٦، ولا غرابة في ذلك لأن الكاتب مشبع بالروح الثورية والأفكار التي كانت سائدة في روسيا - القرن التاسع عشر - والتي أدت الى الثورة على القديم في نهاية المطاف .

إنَّ خاصية الألم معروفة على صعيد المرض الجسدي، ولكن الألم الروحي أو المعنوي له طابع آخر ، إذْ تعاني تلك النفوس المتألمة من فقدان الوداعة والطيبة والمودة والثقافة لدى الناس الذين يتعايشون معهم ، إذْ أغلب هؤلاء الناس من المنتفعين والوصوليين ،الذين لا يهتمون لمعاناة هذه النفوس المرهفة الحس ، حتى تؤدي بهم هذه المعاناة الى الجنون وهذا ما كشفه الكاتب في (عنبر رقم ٦) .

الألم الإنساني تجسَّد بطابع واضح وفي صفحات كثيرة من هذا العمل المتفرد ، وفي تلك الحقبة الزمنية .

إنَّ تجربة الكاتب ومرانه وتفانيه ومقدرته وموهبته الفنية أدت الى توضيح ذلك الألم عبر جمل مكتنزة ومكثفة وغير شعائرية ، دالة على تفرد الكاتب في عمله هذا ، فالدقة والإتقان والوضوح مطلوبة وبارزة في لغة الكاتب الصافية ، الخالية من الغموض والزوائد والشوائب أو التكرار الممل، أنها لغة الوجدان والعاطفة الجياشة ، لاخسائر فيها ، والعمل الأدبي (عنبر رقم ٦) خير دليل على ذلك.

إنَّ خاصية الألم معروفة علي صعيد المرض الجسدي، ولكن الألم الروحي أو المعنوي له طابع آخر ، إذْ تعاني تلك النفوس المتألمة من فقدان الوداعة والطيبة والمودة والثقافة لدي الناس الذين يتعايشون معهم ، إذْ أغلب هؤلاء الناس من المنتفعين والوصوليين ،الذين لا يهتمون لمعاناة هذه النفوس المرهفة الحس ، حتي تؤدي بهم هذه المعاناة إلي الجنون وهذا ما كشفه الكاتب في (عنبر رقم ٦) . الألم الإنساني تجسَّد بطابع واضح وفي صفحات كثيرة من هذا العمل المتفرد ، وفي تلك الحقبة الزمنية .

تشيخوف وزوجته

توماس مان يكتب عن تشيخوف

عندما توفي تشيخوف مصدورا في بادنفلير في تموز عام ١٩٠٤ كنت لازال شابا يافعا دخل لتوه الحقل الادبي وفي جعبته يضع قصص ورواية مساهم تأثري بالنتاج الادب الروسي للقرن التاسع عشر، بقسط غير قليل في كتابتها، ولطالما حاولت اليوم، ولكن دون جدوى، ان استرجع الاثر الذي تركه في نفسي حينها موت الكاتب الروسي الذي كان يبكرني بخمسة عشر عاما، اجدني عاجزا تماما عن ان اتذكر، فلابد ان اعلان وفاته في الصحف الالمانية لم يترن كثيراً، ولاشك ان كل ما كتب عن تشيخوف في تلك المناسبة لم يفلح في تعميق وعيي بعظمة هذا الانسان الذي فقدته روسيا مبكرة، وفقده العالم مبكرا، ومحتمل ايضا ان كل ما كتب في نعيه كان هو الاخر اسير الجهل ذاته الذي طبع تصوري له وحدد موقفي ازاء حياته وعمله الادبي، ولكن موقفي هذا اخذ يعاني بمرور السنين تغيرا وان كان بطيئا فانه مستمر.

ترجمة: ثامر ياسين طه

ولكن دعنا نتساءل الان عن اسباب هذا الجهل، وبقدر ما يتعلق الامر بي، فانني استطيع تبريره بتقرير كوني وقتها مولعا اشد الولع بالاعمال الادبية العظيمة ذات النفس الطويل، بتلك الملاحم الخالدة التي يتطلب بناؤها جلدا وصبرا عظيمين، ولانني كنت حينها واحدا من المتعبدين في محاريب بلزاك وتولستوي وفاغنر، اذ لم تكن عيناي لترنيا سواهم ولم تكن اسمى طموحاتي سوى ان ابزهم ان استطعت، وتشيخوف كموباسان الذي اصبحت اكثر تذوقا لاعماله ومعرفة بها بعد ذلك بوقت قصير، امتاز بأنه كان يعبر عن نفسه ضمن اطر اكثر تحديد- في القصة القصيرة التي لاتتطلب سنينا او عقودا من الجلد البطولي المتواصل والتي يمكن لكتاب اقل شأناً من هؤلاء العمالقة بما لايقاس انجزها في اسابيع ، بل ربما ايام، كنت اذاك انظر بشيء من الاحتقار الى كتاب القصة القصيرة وقد غاب عن ذهني مدى الغنى والعمق الداخليين اللذين يمكن للعمل القصير والمركز اكتسابهما من قلم عبقري، كان ادراكي قاصرا على استيعاب كيف ان الايجاز لو تمكن من تشرب واحتضان كلية الحياة وامتلائها لرقي الى مستوى الملاحم الخالدة، بل لفاق في حدته وكثافته الفنية كثيرا من الاعمال الضخمة الطويلة التي لاتجد مناصا من ان تتهادى وتهبط احيانا فاقدة شدتها وتماسكها مستسلمة لنوع من الفتور الممل، وان كنت قد ادركت هذه الحقيقة في السنوات اللاحقة من حياتي فان الفضل في ذلك انما يعود فقط لانشغالي بفن تشيخوف الروائي الذي، واستطيع ان اقولها الان مقتنعا، قل ان نجد له نظيرا في الادب الاوروبي.

ولنتحدث الان على نطاق اوسع، فأنني اشعر بانه قد اسيء تقييم تشيخوف لسنوات طويلة في اوروبا كما في روسيا وذلك بسبب موقفه النقدي المتشدد والمتشكك من نفسه ومن انتاجه الادبي، وبكلمة اخرى، بسبب تواضعه المفرط الذي وان كان بحد ذات فضيلة محببة، فانه قاد العالم الى ابخاسه حقه من الاهتمام، وفي الحقيقة يمكن القول بأن تشيخوف قد ضرب مثلا سيئا بتواضعه هذا، حيث ان تقييم الاخرين لنا لا يخلو من تأثير بتقييمنا نحن لانفسنا ، ولربما بلغ هذا التأثر احيانا حد التشويه، لقد ظل تشيخوف طويلا مقتنعا بعدم اهمية موهبته وبتفاهته ادبيا، وقد عانت عملية اكتسابه للحد الادني من الثقة بالنفس والضروري لجعل الاخرين يقون به تأثرا اليما وسارت بخطى شديدة البطء، ولم يكن لديه حتى النهاية شيء من اوهام العظمة التي ينسجها معظم الفنانين حول ذواتهم ولا كان عنده شيء من توهم الحكمة والنبوءة الذي امتاز به تولستوي الذي كان ينظر الى اديبنا بعطف فيرى فيه، كما قال غوركي، "رجلا متواضعا هادئا ممتازا" .

ان اطراء كهذا من رجل لايقل كبرياء عن فاغنر لايملك الا ان ان يثير دهشتنا، وبلا شك فان تشيخوف ربما كان تلقي اطراء تولستوي هذا بابتسامة مهذبة لاتخلو من تهكم، حيث ان الاحترام المشوب بشيء من التهكم، كان الطابع الغالب على علاقته، بذلك العملاق القادم من ياسنايا بوليانا، واحيانا، وليس بالطبع وجها لوجه مع ت لك الشخصية الطاغية وانما في رسائل موجهة الى شخص ثالث، كان هذا التهكم يتفجر ليكشف عن تمرد صريم، فعند عودته من جزيرة ساخالين الموحشة حيث كان السجناء يقضون محكومياتهم كتب تشيخوف ": لكم كنت اصبحت غبيا جافا اليوم لو قدر لي البقاء بين جدراني الاربعة، نقبل رحلتي هذه كنت اظن (رباعية كرتزر) لتولستوي حدثا عظيما، اما الان فانها تبدو لي مضحكة وسخيفة، لقد ازعجته اوهام تولستوي بالعظمة والنبؤة فكتب يقول" فلتذهب فلسفة جبابرة هذا العالم الى الشيطان، لان كل الحكماء طغاة كالجنرالات وقساة كالجنرالات، مهما كانوا مقتنعين بعصمتهم، ان الذي استفزه لقول هذا كان اتهام تولستوي للاطباء ونعته اياهم بالاوغاد عديمي النفع فتشيخوف نفسه كان طبيبا وهب نفسه لمهنته واحبها وآمن بأن العلم قوة دافعة نحو التقدم وبأنه عدو للاوضاع الانسانية البائسة، فالحكمة القائلة بعدم مجابهة الظلم بالعنف وبالمقاومة السلبية التي آمن بها تولستوي اضافة الى احتقاره للمدنية والتقدم العلمي لم تكن عند تشيخوف سوى لغو رجعي، فمهما كان الرجل عظيما فأنه لايحق له سن القوانين في مواضيع يجهلها كل الجهل، هذا ما كان تشيخوف

> **ان تواضع تشيخوف الجم جعل منه اديبا وضعيا وضع نفسه ببساطة واخلاص في خدمة الحقيقة غير مبتغ لنفسه ايا من الامتيازات التي يصر عليها العظماء، فعند قرائه المؤلف بورجيه "المريد" لم يتمالك نفسه عن التنديد وبشدة باولئك المستخفين بالمادية العلمية اللابسين لبوس المثالية . "ان هذه الحملات لا تبدو منطقية اطلاقا،**

يلوم تولستوي عليه، "ان فلسفة تولستوي الاخلاقية لم تعد تؤثر بي، فانا لا اوافقه عليها ابدا، انا نفسي املك دما فلاحيا ولايمكن لاحد ان يحاول اقناعي بفلسفة كهذه تحت ستار الدفاع عن الفضائل الفلاحية، لقد آمنت بالتقدم منذ صباي، والتفكير الجاد المتزن اضافة الى الاحساس بالعدالة يدلانني على ان الكهرباء والبخار ينطويان على حب للبشرية اعظم ما تنطوي عليه الطهارة والصوم" .

وباختصار فان تواضع تشيخوف الجم جعل منه اديبا وضعيا وضع نفسه ببساطة واخلاص في خدمة الحقيقة غير مبتغ لنفسه ايا من الامتيازات التي يصر عليها العظماء، فعند قرائه المؤلف بورجيه "المريد" لم يتمالك نفسه عن التنديد وبشدة باولئك المستخفين بالمادية العلمية اللابسين لبوس المثالية .

"ان هذه الحملات لا تبدو منطقية اطلاقا، فأن يحرم على الانسان المفهوم المادي هو ان يحرم عليه استقصاء الحقيقة، اذ ولا خبرة ولا معرفة خارج المادة، وبالتالي فلا حقيقة."

وان لم اكن مخطئا فان شكوك شيخوف الذاتية كفنان تجاوزت ذاته لتحتضن الفن كله، وبالاخص الادب، فقد كان يرى في العيش بين جدرانه الاربعة كما يقول، شيئا يبعث على الاشمئزاز ، كان يؤمن دوما بأن الجهد الادبي لايمكن ان يتم ويكتمل الا من خلال فعالية اجتماعية عملية بين اناس يمارسون الحياة، لقد كان الادب بالنسبة له، وحسب تشبيهه الخاص، محظية معشوقة، بينما كان الطب له زوجه التي كان يشعر تجاهها بالذنب لخيانته لها، ان هذا الشعور هو الذي دفعه للقيام برحلته المزعجة الى ساخالين مخاطرا بصحته التي كان له اكبر الاثر في الاصلاحات البسيطة التي حدثت في تلك الجزيرة. ومن هنا ايضا تأثر ت جهوده المتواصلة كطبيب ريفي والتي سارت يدا بيد مع عمله في حقل الادب. فلقد عهدت اليه ادارة مستشفى سفينيغود القريبة من موسكو، وقام بمحاربة وباء الكوليرا ونجح في فرض الحجر الصحي على مزرعته الصغيرة في ميليخوفو حيث كان يقوم ايضا بادارة شؤون مدرسة القرية، وكانت شهرته في ذلك الوقت مستمرة في النمو ولكنه كان ينظر الى هذه الشهرة بتشكك وشعور بالذنب وسؤال ملح، ينهش ضميره، "الست اخدع القارئ لانني لا استطيع الاجابة على اسئلته المهمة حقا؟" .

كان لهذه الكلمات اعظم الاثر في نفسي وهي التي جعلتني اقرر التعرف على حياة تشيخوف بشكل اكثر عمقا، فكان ان وجدت سيرته من اعظم السير التي عرفتها غنى واثارة ، ولد تشيخوف في بلدة تاغانروغ على بحر آزوف في جنوب روسيا حيث كان والده، وهو برجوازي شديد التعصب كان ابوه قنا يملك دكانا للبقالة ويتنمر على زوجه واطفاله، ولم تكن اهتمامات الاب الفنية لتتعدى تلوين الايقونات والعزف الرئ على الفايولن، اذ كان مولعا بالالحان الكنسية فقام بتنظيم جوقة المنشدين اجبر ابناء ه على الانظمام اليها، وربما كانت اولاعه المشتتة تلك مسؤولة عن كساد تجارته وافلاسه التنام بينما كان انطون بافلوفيتش لا يزال تلميذاً مما حدا به للرحيل الى موسكو هربا من دائنيه، لكن بذرة فنية بدائية ةومبهمة كامنة في قلب هذا الشيخ البرجوازي الصغير الضيق الافق والشديد التعصب كان مقدرا لها ان تورق وتتفتح في واحد فقط من ابنائه.

وحقا فلقد نجح احد اشقاء تشيخوف الذين يكبرونه سنا في ان يكون محررا مغمورا وتمكن اخر ان يكون رساما ولكنه كسلفه اغرق في الفودكا كل ما كان يمكن ان يملك من موهبة، ولقد حاول تشيخوف ذو الشخصية المتزنة الوحيدة في العائلة دعم هاتين الشخصيتين المهزوزتين المتداعيتين دون جدوى.

ولنعد الى ما يعنينا الان، لقد كان على الاخوة تشيخوف مساعدة والدهم في عمله وقضاء مهماته التي يكلفهم بها، وكان عليهم ايام العطل ان يستيقظوا في الثالثة صباحا للتمرن مع الجوقة على اداء الاناشيد الدينية استعدادا لطقوس الصباح، اضافة لكل هذا فقد كانت مدرسة تاغانروغ اللاتينية مختبرا لانتاج الببغاوات الادمية التي خطط لها وملقنيها

بأن تخنق في كل فرد منهم اية بادرة للتفكير المستقل مهما صغرت. كانت الحياة هناك سخيفة مملة ظالمة، كأنها الاعمال الشاقة التي يعاقب بها المجرمون، لكن واحدا فقط، في العائلة كانت له وسائله الغريبة الخاصة للتعويض عن قتامة حياته ورتابتها، ذلك هو انطون ، فلقد كان يمتلك طبيعيا للمرح والفكاهة وتقليد الاخرين في تلك الجوانب من شخصياتهم التي نمر بها نحن مر الكرام، والتي لو ضخمت وجعلت اكثر حدة وبروزا لاثارت عواصف الشحك ، كان يختار شماس الكنيسة الساذج، او موظفا محليا يهز ساقيه راقصا، او طبيب اسنان او عريفا في الشرطة وهو يحضر القداس ويقلد شخصية كل منهم باسلوب كوميدي لاذع ينتزع الضحكات وصيحات الاعجاب من حناجر اكثر الحاضرين تزمتا واعظمهم جدية فلا يتمالك بعضهم نفسه من ان يرجوه اعادة الاداء.

ما يظهر لنا هنا هو واحد من الاصول البدائية لكن، الا وهو الليل للمحاكاة والرغبة في الامتاع لقد تطورت وسائل التعبير عن هذه الاصول الفنية لدى انطون تشيخوف لتظهر في السنين اللاحقة من حياته باشكال مختلفة تماما، حيث انها امتزجت لديه وتداخلت مع مبادئ روحية واخلاقية وعانت عملية صقل وتهذيب رفعتها من مجرد فعاليات تثير الضحك الى منجزات شامخة تهز النفوس ، ومع ذلك فحتى في اعظم لحظاته جدية واكثرها مرارة لم يفقد تشيخوف حسه الفكاهي القديم وظل عمله دائما محتفظا بالنكهة الكاريكاتيرية الذكية لتلك الصور القديمة لعريف الشرطة والموظف الحكومي الراقص.

بعد ان لم يعد للاب مفر من اغلاق دكانه والفرار الى موسكو قضى انطون بافلوفتش الذي كان في السادسة عشرة انذاك، ثلاث سنوات اخرى في تاغانرو لاكمال تعليمه، حيث كان عليه ان يفعل ذلك كي يحقق امله في دراسة الطب، فحصل على منحة دراسية للسنوات الثلاث الاخيرة من دراسته مستعينا بالمال القليل الذي كان يحصل عليه لقاء تدريس التلاميذ الاصغر منه سنا. وما ان حصل على الشهادة الثانوية حتى رحل ليلتحق بالجامعة في موسكو حيث كان ابواه.

فهل شعر الشاب الهارب من ذلك المحيط الضيق الخانق بالسعادة في المدينة الكبيرة؟ هل استطاع التنفس بحرية اكبر ؟ واسفا؟ فلم يكن لاحد ان يتنفس بحرية في روسيا في ذلك الزمن. فالسلطة كانت قد ضيقت الخناق على الجميع وكان الاضطهاد والقمع القاسيان يرغمان الناس على الرياء والخنوع والتملق لمن في السلطة خوف البطش والارهاب.

كانت البلاد تئن تحت وطأة الحكم الدكتاتوري للقيصر الاسكندر الثالث ووزيره الرهيب بوبيدونوزيف الذي جعل الشعب يقنط كلية من الخلاص ، وكم من تشيخوف من استسلم لليأس التام المطلق.. ففليب اوسبينسكس الرسام الروسي الشهير بلوحاته عن الريف اصيب بالجنون المطبق.

وغارشين الذي كان تشيخوف يحترم فنه الروائي السوداوي كثيرا لم يجد بدا من الانتحار.. وحاول ليفتان وهو رسام من اصدقاء تشيخوف الانتحار ففش ل، وفي ظروف كهذه اخذت الفودكا تستقطب اعدادا متزايدة من المفكرين والفنانين، كان الكل يشرب ياساً، وغرق كلا شقيقي تشيخوف في الشرب، واخذا يهبطان بسرعة مطردة الى اسفل السلم الاجتماعي غير آبهين بتوسلات اخيهما بأن يحاولا ضبط النفس، انهما على اية حال ربما كانا سيصبحان سكيرين حتى لو لم يكن هناك بوبيدونوزيف ، لكن المؤسف في الامر هو انهما كانا يحتسيان على غيرهما ممن الجأهم اليأس القاتل للشرب من امثال الشاعر الطيب "يالمن" صديق انطوان.

اما تشيخوف فانه لم يسلم زمامه للشراب ولم يفقد رشده ولم يهو في مهاوي اليأس، لقد كان همه الوحيد متابعة تحصيله العلمي في حقل الطب حيث لا سلطة للسيد بوبيونوزيف ، وبالنسبة للاضطهاد والظلم الشائعين فلقد تسلح ضدهما بنفس السلاح الذي جابه به فراغ الحياة ورتابتها في تاغانروغ فكان لاينفك يثير النكات ويستعيد صوره الكاريكاتارية القديمة.

والفرق الوحيد انه لم يكن يعبر عن كل ذلك تمثيلا من خلال الكتابة، فبين الفوضى والضجيج الذين كان يعمان شقة والديه كان يجلس الى منضدته ليكتب لاية صحيفة مستعدة لنشر شيء من النقد الساخر الحذر وغير المباشر.

وكان يكتب في مواضيع شديدة الاختلاف باختصار وبسرعة باسلوبه الفكه الذي فتح له السبيل الى صفحات الصحف فازداد الطلب على كتاباته باطراد وراح يكتب ويكتب بلا كلل. ولابد ان دراسته العلمية مضافا اليها جهوده هذه للكتابة كانتا تستنزفان كل ما لديه من طاقة.

حيث ان الملاحظات والمواقف الحياتية ورسم الشخصيات كانت تتطلب منه ان يمنحها ابعادا خاصة كي تكون محبوكة وهادفة وهذا يعني مجهودا كبيرا وخاصة اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار العدد الذي كان عليه ان ينجزه من هذه الكتابات كي يجمع من اثمانها الشحيحة ما يكفي لتغطية نفقات الدراسة بالاضافة لاعالة والديه واشقائه وشقيقاته الاصغر سنا حيث لم يكن والده ليكسب شيئا وكان هو المسؤول الوحيد عن اعالة الاسرة. تحمل الشاب مسؤولياته بشجاعة وراح يكتب ويكتب وباسم مستعار هو انتوشا تشيخونتي.

وهنا حدث شيء غريب شيء لا تثيره سوى روح الادب العنيدة الجامحة التي ما ان يتوسل بها المرء ابتغاء غاية ما، ومهما كانت غايته تلك متسمة بالنفعية البحتة حتى تجمع به في مسالك ابعد ما تكون عن توقعاته لتوصله الى نتائج لم تخطر له ببال.

فانتوشا تشيخونتي الفكه الساخر يعترف بان هذه الروح كانت لا تنفك تطرق ابواب ضميره، فلقد وصف في احدى رسائله كيف انه بين ذهاب الصغار وايابهم وصخبهم وصياحهم وصوت الحاكي المرتفع وهو يصدح بالموسيقى وصراخ والده في الغرفة المجاورة. كان يجلس الى منضدته العارية وعمله الادبي منجزا امامه، "يطرق ابواب ضميره بعنف لايرحم". ان هذا علمنا ان عمله ذاك ما كان يقصد به ان يكون سوى نكتة لاضحاك العالم امبرجوازى، ان ما عنيته منذ لحظة بذلك الشيء الغريب غير المتوقع هو انه، تدريجيا وبدون علم منه كان يتسرب الى كتاباته ويدب فيها شيء لم يكن المقصود به اصلا مخاطبة هذا العالم، شيء نابع من ضمير الادب ومن ضميره هو شيء وان لم يفقد عناصر المرح والامتاع فانه انطوى على حزن عميق ونغمة مريرة تعرى الحياة والمجتمع وتتهمهما ، نغمة مشفقة لكنها ناقدة –بكلمة واحدة، ادب ان هذه النغمة التي تسللت الى اعماله كانت مرتبطة بصورة مباشرة بفن الكتابة ذاته، بالشكل وباللغة ، ولقد كان ذلك الحزن النقدي وذلك النزوع نحو التمرد يعبران عن التوق الجارف الى واقع افضل، الى حياة انقى واصدق وانبل واجمل، الى مجتمع تكون قيمة الانسان فيه اكبر.

وقد انعكس توقه هذا في اللغة وفي التزامه بالتعامل معها كعمل فني، ذلك الالتزام الذي كان بلا شك جزءا من التغيير الذي طرأ على "خربشات" انتوشا الاولى المفتقرة الى الشكل ، كان يجب ان تمر خمسة عشر عاما قبل ان يقول غوركي كلمته في هذا الانتوشا:

تشيخوف ومكسيم غوركي

"كواحد ممن يملكون اسلوبا اديبا فان تشيخوف لايضاهي ولسوف يذكر مؤرخو الادب اللاحقون وهم يدرسون نحو اللغة الروسية ومراحل تطورها اسم تشيخوف مع بوشكين وترجنيف كواحد من العمالقة الذين ابدعوها".

هذه الكلمات قيلت في عام ١٩٠٠، وما يهمنا الان هو الفترة بين ١٨٨٤ -١٨٨٥ ، فبعد تخرجه حصل انطون تشيخوف ، الذي كان قد بلغ الرابعة والعشرين على عمل كطبيب مقيم في مستشفى مقاطعة فوسكريسنك حيث كان يقوم بتشريح جثث المنتحرين واولئك الذين يموتون بطرق تثير الشكوك. ومع ذلك فانه استمر برسم الشخصيات الفكهة في كتاباته حيث كان ذلك قد اصبح عادة لديه، ومن بين قصصه تلك كانت هناك قصص معينة كـ "موت موظف". و(السمان والنحاف) و(الجانح) منحته كتابتها متعة خاصة، ولان عنصر ال نكتة في هذه القصص كان ممزوجاً بالمرارة فمن المحتمل انها لم تسر الجمهور كليا، لكنها حظيت باهتمام كبير من قبل البعض ومنهم غريغوروفيتش، امنكم من عرف ديمتري فاسلييفتش ؟ بصراحة انا لم اكن قد سمعت باسمه قط قبل دراستي لحياة تشيخوف كان هذا الرجل في ذلك الحين قد اكتسب احتراما واسماً كأديب ذي رسالة اشتهر برواياته عن حياة الاقنان، لقد كتب هذا الرجل الذي كان يوما صديقا ليلنسكي ثم لترجيف ودستويفسكي رسالة من بطرسبرج للطبيب الشاب لتشيخوف في فوسكريسنسك، كانت رسالة جدية جدا رسمت بصورة مدهشة اعظم نقطة تحول في حياة تشيخوف، تقول الرسالة انك تملك ياسيدي العزيز موهبة فريدة لايجدر بها، حسب اقتناعي ان تتراجع امام اهم المهام واصعبها ، انها لتكون مأساة محزنة ان تضطر لتبديد موهبة كهذه في الترهات الادبية، انني اشعر بحاجة ملحة لان اتوسل اليك ان تكف عن هذا وان تركز اهتمامك في اعمال ذات مزايا فنية اصيلة".

ربما لم يذهل تشيخوف في حياته ولم يهتز ويدهش ابدا كما ذهل واعتز ودهش لحظة اتمامه قراءة هذه السطور، وكتب في جوابه على تلك الرسالة: (لقد اوشكت ان اجهش باكيا، انني اشعر بان رسالتك قد تركت في نفسي اثرا عميقا، انني في دوار، واجدني عاجزا تماما عن الحكم فيما اذا كنت استحق حقل كل هذا المديح.. ان كنت حقا املك موهبة ذات قيمة فدعني اعترف لقلبك النقي بانني لم اكن حتى الان لهذه الموهبة أي احترام.. هناك دائماً تبرير كاف لان لا يكون المرء عادلا مع نفسه الا وهو كونه متشككا الى حد الافراط او كونه حساسا الى حد المرض، وانني قد اتخذت حتى الان موقفا عظيم الاستخفاف والاهمال والسطحية من فعالياتي الادبية.. كنت اكتب فقط.. باذلا قصارى جهدي كي لا ابدد على ما اكتب تلك الصور والشخصيات العزيزة حقا لدي، ولا يعلم الله لماذا ابقيتها محروسة مخبأة). هذا ما كتبه تشيخوف في رسالته الجوابية التي يشكر فيها الرجل العجوز والتي اصبحت مشهورة فيما بعد، وربما كان قد ذهب بعد كتابتها لتشريح جثة او لعيادة حالة تيفوئيد في المستشفى المحلي دعنا نفترض حالة التيفوئيد في ذكرى الحمى ذات البقع التي داهمت الملازم كليموف في احدى القصص اللاحقة التي كتبها تشيخوف براعة عبقرية من وجهة نظر المريض وواقعها باسمه الصريح بعد ان جعلته تلك الرسالة يكف عن الكتابة باسم انتوشا تشيخونتي.

ولم تكن حياة انطون بافلوفيتش طويلة فقد ظهرت عليه اول اعراض السل في التاسعة والعشرين، وبحكم مهنته كطبيب فانه استطاع تشخيص تلك الاعراض منذ البداية

كانت لديه خمس وعشرون سنة فقط لانماء وصقل موهبته الخلاقة ، وقد استغلها بكاملها تاركا لنا حوالي الستمئة قصة بضمنها عدد ليس بالقليل من القصص القصيرة الطويلة كرائعته (الجناح رقم ستة) والتي يقيم فيها طبيب اصابه القرف من بؤس العالم وغبائه علاقة حميمية مع احد المجانين فيعلن الجميع بان الطبيب قد جن هو الاخر فينتهي به الامر الى ان يحبس مع صاحبه، بالرغم من كون هذه القصة ذات الثماني والسبعين والمكتوبة في عام ١٨٩٢ قد تجنيت أي اتهام صريح فانها مفعمة بالرمزية،

فتقبل الامر بواقعية رزينة ولم يكن لديه ادنى وهم بامكانية صموده ليبلغ السن التي بلغها تولستوي.

ولانملك سوى ان نتساءل فيما اذا يكن لوعيه التام بقصر مكوثه على هذه الارض اثر في تواضعه الشديد الذي استمر كطابع مميز لفكره وادبه.

وكانت لديه خمس وعشرون سنة فقط لانماء وصقل موهبته الخلاقة ، وقد استغلها بكاملها تاركا لنا حوالي الستمئة قصة بضمنها عدد ليس بالقليل من القصص القصيرة الطويلة كرائعته (الجناح رقم ستة) والتي يقيم فيها طبيب اصابه القرف من بؤس العالم وغبائه علاقة حميمية مع احد المجانين فيعلن الجميع بان الطبيب قد جن هو الاخر فينتهي به الامر الى ان يحبس مع صاحبه، بالرغم من كون هذه القصة ذات الثماني والسبعين والمكتوبة في عام ١٨٩٢ قد تجنيت أي اتهام صريح فانها مفعمة بالرمزية، حيث تشير من طرف خفي باصابع الاتهام الى الانحلال واليأس الذين كانت تعانيهما روسيا القيصرية خاصة وو النظم الاستبدادية عامة حتى ان لنين الشاب قال مخاطبا شقيقته بعد قرائته لها "لقد شعرت بتوتر وانزعاج شديدين الليلة الماضية بعد ان قرأت هذه القصة، ولم اتمكن من الجلوس ساكنا للحظة واحدة، كان علي ان انهض واخرج من غرفتي بسرعة، فلقد اعتراني شعور كما لو كنت انا نفسي نزيلا في الجناح رقم ستة".

ولايجب ان يفوتني الان ان اذكر القصة المفضلة لدي من بين اعمال تشيخوف القصصية الا وهي قصته المعنونة (حكاية مملة)، فانا اعتبر هذه القصة بجوها العابق بحزن رقيق غريب من اجود ما كتب في الادب العالمي، ولا غرابة في ان يطالعنا العنوان بكلمة (مملة) حيث ان الكاتب الذي كان في الثلاثين كان قد وضعها وبتفهم تام في فم شيخ في السبعين.وشيخنا هذا استاذ ذائع الصيت حائز على رتبة جنرال ينادي بصاحب الفخامة، والشيخ يردد دوما لقبه الاخير هذا بتهكم مرير لانه وان كان يحتل مركزا رفيعا في هرم السلطة الا انه كان له من الذكاء والقدرة على النقد والنقد الذاتي ما يكفي لجعله يرى تفاهة الشهرة والاحترام الذين يتمتع بهما ، فهو في اعمقاه رجل يائس لانه يدرك انه بالرغم من جاهه والقابه فان حياته كانت تفتقر الى مر كز روحي، (الى فكرة مركزية) وانها في حقيقتها خالية من كل معنى ، يقول الشيخ: "ان كل شعور وكل نكرة تعيش وحيدة في داخلي بعيدة كل البعد عن الاخرى ولايمكن لاي محلل مهما كان خبيرا وبارعا ان يجد في تقييماتي في العلم والمسرح والادب..الخ شيئا يمكن ان يدعي فكرة مركزية.

وان لم تكن هناك هذه الفكرة، فلا شيء هناك اذن وليس غريبا ان تكون سماء حياتي قد لبتها خلال الشهور الاخيرة غيوم افكار ومشاعر لا تعن الا لعبد او لبربري، وليس غريباً انني الان لم اعد ابالي بشيء اطلاقا، ان لم يكن هناك شيء في حياة المخلوق الادمي اقوى واهم من ظروفه الخارجية فان نوبة برد تافهة لقادرة على قلب توازنه، وان كل سوداويته او افكاره البهيجة لن تعدو ان تكون سوى اعراض فقط. لقد هزمت فلا جدوى اذن من الاستمرار بالتفكير ولا جدوى من الجدال، سأجلس فقط منتظرا بصمت ما سيأتي". ان كلمات الشيخ نيكولاي ستيبانتش لتبعث في الذاكرة المقطع الاخير الذي نطق به بروسبيرو ونهايتي هي الياس ويتابع الشيخ "انني وبصراحة تامة، لا احب شعبيتي واشعر بانها تخدعني". عندما انطق تشيخوف هذه الشخصية بهذه الصورة فانه كان لايزال شابا، لكن وعيه بانه لن يعيش طويلا وهبه هذه الرؤية النافذة لمزاج رجل شارف نهاية رحلته في الحياة ، كما انه هو نفسه لم يكن يحب شعبيته، او لم يكن يخدع القارئ بان يبهره بموهبته دون ان يكون قادرا على الاجابة على الاسئلة المهمة حقا".

كما يقول ؟لم كان يكتب اذا؟ بم كان يؤمن وما الذي كان يهدف اليه؟ واين كانت في حياته وادبه تلك الفكرة المركزية التي لايعود للانسان بدونها من شيء؟

أهم أحداث حياة أنطون تشيخوف

ولد أنطون تشيخوف في مدينة تاغانروغ وهذه نسخة من شهادة ولادته مأخوذة من مكتب كنيسة الكاتدرائية:
«ولد في ١٧ كانون الثاني عام ١٨٦٠ الولد أنطونيس وعمد في ٢٧ كانون الثاني».
١٨٦٧ أرسله أبوه إلى المدرسة اليونانية لكنيسة الملك قسطنطين.
١٨٦٩ دخل أنطون الصف الأول في مدرسة تاغانروغ للقواعد.
١٨٧٦ فشلت أعمال والد أنطون فشلاً ذريعاً، وانتقلت الأسرة إلى موسكو لتعيش في ظروف بائسة، وبقي أنطون في تاغانروغ لإكمال دراسته في المدرسة الثانوية، وظل ثلاث سنوات ينفق على نفسه ممتهناً تعليم الطلاب.
١٨٨٠ قصة تشيخوف الأولى (رسالة من دون سكوايرستبان فلاديميروفيتش ن. إلى جاره المتعلم الدكتور فردريك) وقد نشرت في الصحيفة الفكاهية ستركوزا.
١٨٨٤ نال شهادة الطب.
اشتغل في أثناء الصيف في مستشفى زمستفوفي فوسكرسنسك. ١٨٨٤ (حكايات ملبومين).
مجموعة أقاصيص فكاهية بقلم أنتوشا شيخونتا، قامت بنشرها الصحيفة الفكاهية أوسكولكي في موسكو.
١٨٨٦ (أغنية البجع)، مسرحية في فصل واحد. (الساحرة)، قصة.
١٨٨٧ قام برحلة إلى جنوب روسيا، ووصف انطباعاته في قصة (الستبس).
١٨٨٧ (في نور الغسق). مجموعة أقاصيص، قام بنشرها سوفورين، بطرسبرغ.
(إيفانوف)، مسرحية ذات أربعة فصول، قدمها مسرح كورش في موسكو، وكذلك في بطرسبرغ. (لم تنشر هذه المسرحية إلا عام ١٨٨٩). (فولوديا)، قصة.
١٨٨٨ منح جائزة بوشكين (البالغة ٥٠٠ روبل) من قبل الأكاديمية العلمية.
(أنوار) (حفلة عيد ميلاد) قصص (الأجراس) (النوبة) (الدب)، مقلب في فصل واحد.
١٨٨٩ انتخب عضواً في جمعية محبي الأدب الروسي. ١٨٨٩ (شيطان الغابة)، كوميديا في أربعة فصول،.
١٨٩٠ تموز قام برحلة عبر سيبيريا إلى سخالين.
١٨٩٠ (مفجوع رغم أنفه)، مقلب في فصل واحد. (شياطين)، قصة.
٢٣ كانون الاول«إني أسعل. خفقان في القلب لست أدري ماذا يعني كل هذا».
١٨٩١ قام برحلة إلى أقطار أوربا الغربية: فينا – فنيس– فلورنسا– روما– نابولي– باريس – نيس، إلخ... ١٨٩١ (الهاربون في سخالين)، انطباعات.
(المبارزة)، قصة طويلة. (النساء)، قصة.
. ١٨٩٢ (الجناح رقم ٦) (النطاطة)
(الزوجة) قصص (في المنفى) (الجيران)
١٨٩٠ عين مشرفاً طبياً في النضال ضد وباء الكوليرا. «إنني أزور جميع القرى، وألقي المحاضرات على الناس».
١٨٩٣ «إنني أسعل، خفقان في القلب، سوء هضم، صداع...». ١٨٩٣ (فتاة الكورس)، قصة. (قصة رجل مجهول)، قصة طويلة.
(جزيرة سخالين)، ملاحظات رحلة. (نشرت أولا في أعداد تشرين الاول وتشرين الثاني وكانون الاولفي المجلة الشهرية (روسكايا ميسل) ثم أكملت في أعداد شباط وآذار وآيار وحزيران وتموز من عام ١٨٩٤).
نصيحه الأطباء أن يعيش في شبه جزيرة القرم مداراة لصحته.
نصحه الأطباء أن يسافر إلى جنوب فرنسا.
١٨٩٥ (البيت ذو النافذة العريضة).
«كان لي ذات مرة حبيبة اسمها ميزيس. إنني أكتب عنها».
تشرين الاول وتشرين الثاني (طير النورس)، «لقد أنهيت المسرحية، إن عنوانها طير النورس».
١٨٩٦ هاجمه نزيف رئوي. ١٨٩٦ قدمت طير النورس على مسرح الكساندرنيسكي في بطرسبرغ ففشلت فشلاً تاماً. «لن أنسى الليلة الماضية ما حييت، ولن أكتب مرة أخرى تمثيليات، لن أسمح بإخراجها على المسرح».
(طير النورس)، كوميديا في أربعة فصول، نشرت في مجلة (روسكايا ميسل) في عدد كانون الاول.
١٨٩٧ ».سافر إلى جنوب فرنسا لقضاء الشتاء. ١٨٩٧ (حياتي)، قصة طويلة. (المعلمة)
١٨٩٨ كانون الثاني اهتم اهتماماً خاصاً في قضية دريفوس، واشمئز من الحملة التي شنتها جريدة (نوفوي فرميا) ضد دريفوس فقطع علاقته بسوفورين.
توفي أبوه. قرر تشيخوف نزولاً على إلحاح أطبائه أن يستوطن في القرم مع أسرته، اشترى أرضاً وبنى بيتاً قرب يالطة. ١٨٩٨ قدمت (طير النورس) على مسرح موسكو الفني بنجاح عظيم.
قدمت مسرحية (الخال فانيا) في المقاطعات ولقيت نجاحاً عظيماً.
١٨٩٩ باع مزرعته في مليخوفو، وانتقل مع أسرته إلى القرم.
باع حقوق طبع كتبه السابقة والحاضرة واللاحقة إلى الناشر البطرسبورغي ماركس بخمسة وسبعين ألف روبل. ١٨٩٩ (السيدة ذاتالكلب الصغير) قصص
قدمت (الخال فانيا) على مسرح موسكو الفني.
١٩٠٠ انتخب عضواً في الأكاديمية العلمية في بطرسبرغ. ١٩٠٠
بدأ الكتابة في تمثيلية (الشقيقات الثلاث).
في اذار ساءت حالته الصحية.
١٩٠١ ٢ آيار تزوج أولغا كنيبر، وهي ممثلة في مسرح موسكو الفني. ١٩٠١ قدم مسرح موسكو الفني مسرحية (الشقيقات الثلاث).
١٩٠٢ استقال تشيخوف من عضوية الأكاديمية العلمية في بطرسبورغ احتجاجاً على إلغاء السلطات لانتخاب مكسيم غوركي عضواً فيها. ١٩٠٢ (الأسقف)، قصة.
١٩٠٣ ايلول «إنني أسعل.. أشعر بضعف».
١٩٠٣ (بستان الكرز)، كوميديا في أربعة فصول.
تشرين الاول انتخب رئيساً لجمعية الأدب الروسي.
١٩٠٤ /٢٧ آيار «إنني مريض منذ ٢ آيار، ولم أغادر الفراش ١٩٠٤/ ١٧ يناير (العروس)، قصة.
٣ حزيران سافر إلى بادن فيلر، وهي قرية للاستشفاء، تصحبه زوجته.
توفي في بادن فيلر.
دفن في مقبرة دير نوفودفيشي في موسكو.

مسارات

التحرير: علي حسين
التصميم: مصطفى محمد
الاشراف اللغوي: محمد السعدي